

جعفر محمد نميري
المبادئ والمواقف

قصة هذا الكتاب

فى هذا الكتاب عدة مفاجآت . . .

المفاجأة الأولى : أنه أول كتاب - ربما فى التاريخ - يكتبه رئيس دولة عن رئيس دولة !

والمفاجأة الثانية : ان هذا الكتاب رؤية من هو فى موقع السلطة لذلك الذى هو فى رحاب الله مجرداً من كل سلطة !

والمفاجأة الثالثة : هو ذلك السؤال المثير . . كيف استطاع الرئيس نميرى أن يجد وقتا وأن يوفر جهداً ليقدم لنا هذا الكتاب فى فترة زمنية لا تتعدى الشهرين منذ إستشهاد السادات

والمفاجأة الضخمة والأخيرة . . أن يطلب إلى الرئيس نميرى فى السابع من ديسمبر اصدار هذا الكتاب فى الخامس والعشرين من ديسمبر ليوافق ذكرى ميلاد السادات . . حاولت أن أؤجل موعد الاصدار لضيق الوقت ، أخذ الرجل يتكلم عن السادات - على مدى ساعتين - ويقول :

« ان السادات وان اتهمه البعض ظلما فى عروبته بسبب المبادرة
« أو المعاهدة أو أخذ عليه البعض أنه تجاوز الحدود فى اجتهاداته
« أو اختلف معه البعض بسبب مفاجآته الا أن السادات رغم ذلك
« وربما بسبب ذلك انما هو رجل سبق عصره .. ولأنه سبق
« عصره فاننى قد كنت أخشى أن يطوله الزمن اللئيم .. ذلك
« الزمن الذى ينال فيه الحى من الميت بغير حق .. تجاوز فيه
« الحى على الميت باجتهادات هى الظلم أن يقيم انجازه بعيدا
« عن ملابسات ظروفه ، فينال منه النفاق أو الحقد أو الغباء
« ما يمكن أن ينال عظماء الرجال .. ولهذا بادرت بتسجيل
« ما أعرفه عن السادات .. ما عايشته معه .. ما سمعته عنه..
« بل وما وعيته فى مطلع الفجر من مسيرة نضال .. قصدت أن
« أسبق فأسجل أن السادات محسوبا على القمم .. وعندما
« تغيب القمم بفعل سحب الغياب فلقد يظن الواهمون ان الشمس
« لن تشرق أبدا ، وفى غياب شمسه قد يتخبط فى الظلام وللظلام
« كتاب المناسبات حتى هؤلاء الذين كانوا محسوبين عليه .. »

وعلى مدى ساعتين تقريبا كان الرئيس نميرى يتكلم عما حواه الكتاب . . . كان عقلى شاردا يفكر فى كيفية إصدار الكتاب فى هذا الوقت الضيق وخجلت أن أردد ما قلته قبل أن يتكلم بعد ما تكلم ! ! ! وانصرفت مودعاً قائلا « على بركة الله » ويشد الرئيس نميرى على يدى قائلا « حاولت أن أسبق بالكتابه ، حتى أكون أول شاهد على عصر بأكمله . . هو عصر السادات . . »

وفى طريق عودتى ، تذكرت مصر العبور والسادات وكيف علمنا تحطيم المستحيل فى أكتوبر بالعزم والتصميم .

ليصدر هذا الكتاب فى ذكرى ميلاد السادات تحية له . . . وتحقيقا لرغبة نميرى الذى أعطى الدرس كيف يكون الوفاء ! !

احمد يحيى



مطابع الاهرام التجارية



السادات

المبادئ.. والمواقف

الناشر : المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

جعفر محمد نميري

السادات

المبادئ.. والمواقف

المكتب المصري الحديث

إهداء

إلى الشعب الشقيق التوأم
في مصر الصامدة .

حيث لا نملك لمن نادى بالوفاء
وهو في رحاب الله، سوى كلمة وفاء.

جعفر محمد نميري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

صدق الله العظيم

تقديم

تلك خواطر صاغتها المحنة ..

وماذا غير الأحزان يمكن أن يصوغ وقفات أمام دلالة الحدث الأعظم ، دلالته ' ليس إيقاعه ' ، من حيث هو نهاية لفرد يتساوى غيابه بالرمح مع غيابه بالرصاص مع غيابه فى شهقة لا تتعادل فتغيب الحياة ، سنة الحياة هى ودورتها ميلاد فمعاناة فموت .

إلا أن العظيم لا يموت وإن غيب الثرى جسده ، ذلك إنه فى رحلة البشر بين الميلاد والموت أعطى .

ولقد يختلف الناس حول عطاء السادات ولسوف يختلفون ، إلا أن السادات بإختلاف الناس حوله بل وبإختلاف البعض معه ، لم يكن إلا مبادىء ومواقف .

وحول السادات المبادىء والمواقف كانت هذه الصفحات ، والذى أعلم مسبقاً أننى بها أدخل متطوعاً فى قلب العواصف .

فالذين لم يغفروا لى أننى كنت مع السادات يوم عاد من القدس ، ولم يفهموا لماذا التقيت بالسادات يوم رجع من كامب دافيد ، والذين لم يتعاطفوا مع موكب الحزن يوم وداعه فلم يروا فيه فجيعة شعب ودموع أمة ، وإنما بادروا بالعتاب وما يفوق العتاب لمكانى بين الصفوف أشيعه ، ومكانى بين أسرته أتلقى العزاء فيه ، وموضعى غير بعيد من مدخل القبر أطلب له الغفران والرحمة .

هؤلاء الذين لم يغفروا ما هو دون الوفاء من جعفر لأنور ، لن يتسامحوا مع كلمة أرى أنها بعض الوفاء لذكراه .

وعلى بركة الله مدركاً مخاطر الوفاء لمن هو فى رحاب الله لا يملك ضراً ولا نفعاً .. أبدأ تسجيل خواطرى .. عن أنور السادات .. المبادىء والمواقف .

جعفر محمد نميرى

الفصل الأول

السادات .. موعد مع الوعى

- بعد الأربعينات
- النازية والأمل
- المواجهة المستحيلة
- مصادمة اليأس
- الوفد من دبابات ٤ فبراير الى الغاء معاهدة ١٩٣٦

دنقلا . . .

السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ م

يتراجع الزمن عن النهار ، إلا أن شمس دنقلا لا تتراجع ، ضوءها الأبيض يشع الوهج والحرارة والتى تعدت الأربعين بعدة درجات .

منذ الصباح والأهل لا يفتر حماسهم ، من جاء مع ساعات الصباح الأولى ، إنضم إليه من توافد علينا على امتداد الساعات ، ضاقت الحجرة الصغيرة بمن فيها ، تحركنا إلى الخارج حيث لم يكن بيننا وبين الشمس حجاب .

جلسة بلا بروتوكول . .

فالضيوف أصحاب دار ، أبناء عمومه وخئوله وعمات وأخوات ، بالإضافة إلى أعمام وأخوال مد الله فى أعمارهم .

الحديث يدور بأكثر من لغة ، العربية الذى يتفاهم بها البعض ، واللغة المحلية (الرطانة) التى أحتاج معها إلى مترجم ، فبعض أهلى الذين لم يغادروا قريتى ، قرية (ودنميرى) لا يعرفون العربية ، وهم كأهل النوبة فى مصر لهم لغتهم الخاصة بمفرداتها

وقواعدها أيضا ، ومع ذلك فلا لغة الحديث ، ولا محتوى الحديث ، لم يخرج عن ذكريات قديمة عن المنطقة والأسرة كان باعثاً على الملل فى نفسى ، فلقد قررت أن أقضى إجازة عيد الأضحى متحرراً من هموم العمل اليومى ومشاغله .

جلسة الأهل التى بدأت عند الصباح ، كان من الواضح أنها لن تصل إلى نهايتها إلا بعد الغروب ، استراحة قصيرة تمهيداً لمواصلة السهر والسمر بعد صلاة العشاء .

حوالى الرابعة بعد الظهر اقترب منى السكرتير المرافق ، توقف بعض الوقت صامتا ، ثم همس بأنه التقط من إحدى الإذاعات الأجنبية خبراً يقول ، ان الرئيس السادات قد أصيب بعدة طلقات نارية خلال العرض العسكرى ، أدركت من نبرات صوته أن للخبر بقية .. سألت ، أجاب متردداً ، بأن خبراً غير مؤكد أذاعته اسرائيل يقول : إن هناك إجماعاً بين بعض وكالات الأنباء أن السادات قد توفى .

عندما استدرت إلى الجالسين والذين لم يتابعوا الهمس ولم يعرفوا محتواه ، كانت ملامحى بالتأكيد تشير إلى ما فى داخلى .

توقف الحديث كل حديث ، حتى الذين كانوا منذ لحظة قد انهمكوا فى أحاديث جانبية ، توقفوا بدورهم ، استأذن أحدهم وخرج ، فى عشر دقائق كانت الساحة الممتلئة قد عادت وكأنها صالحت الهدوء .

لم يعد فيها إلا شخصى ، وعلى البعد وقف السكرتير المرافق

ينتظر التعليمات .

طلبت اتصالاً فورياً بالخرطوم ، تأخر الاتصال فتعجلته . . دقائق وكأنها ساعات .

جاء من يحدثنى أن الخرطوم على الخط ، من هناك ؟ أحد موظفى قصر الشعب ، من غيره ؟

لا أحد حتى الآن .

الساعة تقترب من الرابعة والنصف ، اليوم هو يوم عمل أخير قبل عيد الأضحى ، والذى لم يكن معروفاً حتى هذه الساعة متى يكون ، هل يكون السابع من أكتوبر ، أو الثامن من أكتوبر ، ذلك يتوقف على ظهور الهلال .

الخامسة . .

على الباب من يطرق الباب ، أحد الذين خرجوا عاد ليسأل ، ماذا هناك ؟

لم يكن سؤاله مبرراً إلا بما لاحظه فوق ملامحى من وجوم منذ دقائق ، ولم أكن أملك له الجواب . . جلس ، الصمت حاجز ، لا هو أعاد السؤال ، ولا أنا تطوعت بالإجابة .

كنت فى صراع مع ما سمعت أحاول أن أجد له ما ينفيه . . إشاعة ، خاصة المصدر إذاعة إسرائيل ، بل إن الأمر لا يمكن أن يكون إشاعه لأن الخبر مصدره إذاعة اسرائيل .

لا تستطيع إسرائيل أن تغامر أو على الأصح تقامر بإذاعة خبر

فى مثل هذا الحجم ، إذا لم يكن بالنسبة لهـا فى مرتبة اليقين ، ولكن الذى نقل الخبر ، نقل عنها إنهـا التقـطته من وكالات أنباء أخرى .

وتذكرت أنور السادات وهو يخوض معى فى حديثه المفضل ، ذكريات حرب أكتوبر ، كان يركز دائما على مفاجأة يوم الغفران ، اليوم المقدس عند إسرائيل ، لا حركة ولا نشاط ولا نار توقد ولا انشغال بأمور الدنيا ، كان دائماً فخوراً بمن خططوا معه لحرب أكتوبر ، كيف دسوا بصحيفة الأهرام قبل الحرب بأيام ، خبراً عن قيام عدد كبير من الضباط بأداء العمرة ، كيف تمت دراسة حركة الجزر والمد فى القناة فى مختلف الفصول ومختلف الأيام وساعات الليل والنهار .

لماذا اختار للحرب يوم العاشر من رمضان لا قبله ولا بعده ، ولماذا الثانية ظهراً موعداً للعبور وقبلها بنصف ساعة طلقات المدافع الأولى .

مفاجأة لا يتوقعها العدو ، من ضباط وجنود صائمين ، ومفاجأة للعدو فى يوم عيد دينى كبير .

تذكرت ما كان يقوله عن المفاجأة فى حرب أكتوبر ، وتساءلت هل يكون الخبر ومصدره إسرائيل جزءا من مفاجأة إستراتيجية تستهدف العودة إلى إحتلال ما تحرر من سيناء ، أو قد تكون محاولة من جانب إسرائيل لتمتص بمثل هذا الخبر الصاعق ، التأهب على جبهات عربية أخرى تمهيداً للإنقضاض عليها .

إستبعدت هذه الاحتمالات بسرعة ، ووجدتنى أستدعى السكرتير المرافق لأسأله عن تفاصيل ما سمعه مرة أخرى ، أعاده ، وكالذى يتشبث بالأمل أى أمل ، سألته إذا ما كانت إذاعة إسرائيل قد نسبت النبأ إلى إذاعة ليبيا أو وكالة الأنباء الليبية .

وحينما نفى ذلك . . بدأ شيء كاليأس يتسلل إلى صدرى .

يمر الوقت . . وقت طويل ، وإن لم يكن غير دقائق ، أنتبه فإذا من دخل كان قد خرج بعد أن تحمل الصمت لبعض الوقت . يعود السكرتير المرافق ليقول ، إنه أجرى إتصالاً ثانياً بقصر الشعب فى الخرطوم فوجد النائب الأول لرئيس الجمهورية فى مكتبه ، وإنه أخبره بأنه أجرى إتصالا بالقاهرة التى أفادت بأن إصابة الرئيس السادات بسيطة ، وإنه الآن تحت إشراف الأطباء بمستشفى المعادى .

تحدثت مع النائب الأول ، أكد لى ما سمعته ، طلبت مواصلة الإتصال بالقاهرة لمعرفة كل جديد .

ماذا غير اليأس أكثر مرارة من كل مرارات الحياة ، رغم ما سمعته منذ لحظات ومصدره القاهرة ، فلقد كنت بما يشبه الحدس على يقين بأن السادات قد رحل ، وفيما يشبه الإلهام كان العقيد (عمر محقر) السكرتير المرافق يمد لى يده بكتاب الله الكريم .

ما بين السادسة والسابعة تتوالى المتناقضات ، الخرطوم تؤكد بأن الإصابة سطحية ، وهناك ما يقال حول مصرع السفير

السودانى بالقاهرة أثناء حضوره العرض العسكرى .

فى دنقلا ، ونقلا عن إذاعة القاهرة تتوالى مؤشرات الفاجعة .

إعلان عن إجتماع طارىء لمجلس الوزراء برئاسة حسنى مبارك ، إعلان عن إجتماع عاجل لمجلس الشعب المصرى .

أناشيد وطنية تبثها الإذاعة المصرية . . ثم فجأة تلاوة لآيات الذكر الحكيم .

السابعة والنصف ، يذيع حسنى مبارك نبأ استشهاد السادات .

فى الثامنة يعقد مجلس الأمن القومى فى الخرطوم إجتماعاً طارئاً ويقرر .

ماذا يقرر . . ؟

وأستمع إلى مبررات القرار . .

إن ما حدث كان صاعقاً ومفاجئاً بكل المقاييس لم يعرف بعد من يقف وراء الحادث ، ومن هى القوى التى خططت ونفذت جريمة الاغتيال . . ثم الأهم ، هل هذه آخر الخطوات ، أم أولى الخطوات فى إطار مخطط لم يكشف أبعاده .

ثم إن هناك ما يقال نقلا عن إذاعة طرابلس ، بأن دبابات سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان المصرى السابق تسيطر على الموقف فى القاهرة ، ولهذا ولغيره من عشرات الاحتمالات ، فلقد قرر مجلس الأمن القومى أن يقوم النائب الأول لرئيس الجمهورية نيابة عنى بالتوجه إلى القاهرة والمشاركة فى تشييع الرئيس الراحل .

واستمعت وإستمعت ولم أعلق .. فقط طلبت طائرة تنقلنى مع أول ضوء من دنقلا إلى الخرطوم .

العاشرة من نفس المساء .. ليل قرية (ودنميرى) خاصم هدوءه المعهود فى تلك الليلة .

عاد سمار النهار ومعهم الكثيرون ، تحولت ساحة السمر إلى ساحة للعزاء ، أكف ترتفع ، شفاه تقرأ الفاتحة ، ثم آياد تمتد تصافحنى تردد كلمات العزاء .

أقف وأجلس ، أقوم وأجلس بعد دخول كل وافد على الدار .

يغيب الإنتباه ويعود ويغيب ..

حتى التفاصيل التى بدأت تتناقلها الشفاه عن الحدث لم يستجب لها الإنتباه .

بعد منتصف الليل ، كان موعدى مع ليل طويل .. طويل .. طويل .

* * *

أنور السادات ..

مطار النزهة الإسكندرية فى يوليو الماضى ، قبل ثلاثة شهور من هذه الليلة .

عند سلم الطائرة كان وداعه حانياً هذه المرة ، شىء كالدموع فى عينيه استدرج بوادرها فى عيونى ، عاد ليعانقنى بعد أن عانقنى ، ليقول بصوت حاول أن يستعيده مما أحسسته شجناً .

[الإسكندرية التى تحبها صيفا ، ستحبها أكثر شتاء ، متى تعود يا جعفر ؟]

وأقول ، بل أن دفء الخرطوم ومشاعر أهلك تناديك والأسرة لقضاء أيام .

وأسمعه يردد . .

ـ إن شاء الله . . إن شاء الله .

بمشيئة الله ودعنى . . واسم المشيئة كان آخر ما سمعته منه .

كان ذلك هو آخر لقاء ، فمتي كان أول لقاء ؟ تلك مسيرة العمر كله .

* * *

مع مطالع الوعى فى السادسة عشرة من عمرى أو بعدها بقليل عام ١٩٤٦ ، سنة واحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، العالم تغيرت معالمه .

المانيا النازية الغازية والتى وصلت بشائر انتصاراتها إلى الخرطوم حين وفد على العاصمة السودانية قيادات عسكرية بريطانية تمهد لانسحاب قوات بريطانيا العظمى من مصر لتتراجع جنوبا إلى السودان . قيادات فكرية عملاقة ، لعل أهمها [عباس محمود العقاد] ، والذى استشعر الخطر باقتراب قوات النازى من الإسكندرية بعد أن تجاوزت العلمين ، المانيا هذه وقعت وثيقة استسلام بدون قيد ولا شرط ، وسقطت برلين أسيرة إحتلال

رباعى من جانب الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا .

وهكذا سقطت كل المراهنات على إنتصار النازية ، من اليابان التى قاومت لأسابيع بعد سقوط هتلر ، إلى الآلاف الذين هتفوا فى شوارع القاهرة . . إلى الأمام يا روميل ، وفى نفس الوقت تلاشت وعود تحرير الشعوب المستعمرة من جانب الحلفاء ، فاحتفلت فرنسا بيوم النصر بقتل الآلاف فى الجزائر ، وتراجعت بريطانيا عن وعودها وعهودها بالجلاء عن مصر والسودان بعد إنتهاء الحرب .

ووجدت القوى الوطنية خاصة فى مصر والسودان نفسها فى مأزق حرج ، فلا هى تستطيع أن تتصدى لقوات إحتلال ثملة بإنتصارها على النازية ولا هى قادرة على الصبر على وجود قوات الاحتلال فوق أراضيها .

وبينما كانت الإدارة البريطانية هى المتحكمة فى السودان ، كانت الحكومات الحزبية فى مصر ، لا تشعر بغير الفخر لعمالتها للاحتلال ، ولقد كانت الدلالة الأعمق لحادث ٤ فبراير فى مصر ، إنه كان تقنينا لسلطة المحتل وشرعية حركته إلى حد فرض الحكومات بقوة السلاح .

وفى هذه الظروف يسقط (أمين عثمان) ، مدير مكتب سابق لرئيس الحكومة والحزب الذى فرضه الإنجليز بحصار القصر الملكى ورمز السلطة الشرعية بالدبابات ، وهو نفسه أمين عثمان

وزير المالية ، الذى يعلن أن علاقة بريطانيا بمصر ليست علاقة إحتلال ولا حتى علاقة صداقة ، وإنما هى زواج كاثوليكى لا إنفصام له ، تقنين للإحتلال ، وإضفاء صفة عاطفية وشرعية عليه .

ويسقط (أمين عثمان) على بعد خطوات من مقر جمعية النهضة الذى كونها وتولى رئاستها نواة لتجمع شعبى مستحيل يرحب بالاحتلال ويقبل به .

وهكذا يسقط الرمز ، بل يسقط الصنم والذى يرمز لسطوة المحتل الثمل بإنتصاره فى حرب كونية شاملة ، وبسقوطه تتراجع كل الدمى التى ظنت أنها كصنائع للمحتل إنما تعيش الأمان من غضبة القوى الوطنية ، وبسقوط (أمين عثمان) تتقدم صفوف القوى الوطنية فى السودان ومصر لتواصل نضالها من جديد .

أيام بعد سقوط (أمين عثمان) نسمع فى الخرطوم عن أسماء جديدة ، لا يسبقها ألقاب الباشوية والباكوية والسير والعزة والسيادة ، أسماء بسيطة من مصر ومن السودان أيضاً .

حسين توفيق ، سعيد توفيق ، سعد زغلول فؤاد ، عبد العزيز خميس ، ومن السودان يتردد أسم عبده دهب .

ومع هؤلاء ، ضابط بالجيش المصرى ، الاسم له رنين ، (**محمد أنور السادات**) ، كأننى سمعته بل من المؤكد أننى سمعته ، أحاديث متناثرة من الأهل والأصدقاء فى مرحلة تسبق الوعى ، عن ضابط مصرى كبير بل ضابط وباشا أيضاً ، حاول أن يهرب

خلال الحرب بطائرة إلى خطوط الألمان فى صحراء مصر الغربية ، أسماء كثيرة جرى تداولها حول هذا الحادث ، من بينها أسم (**محمد أنور السادات**) ، هل يكون الاسم نفس الأسم ، والرجل نفس الرجل .

أيام وتصل الصحف المصرية الى الخرطوم بعد رحلة طويلة فى قطار وسفينة وقطار ، صورة كبيرة تحتل احدى الصفحات لشباب داخل قفص فى محكمة ، وكلهم متهمون فى قضية واحدة ، اغتيال أمين عثمان ، ومن بينهم (**محمد أنور السادات**) .

سمرته القاتمة تشير الى أنه سودانى ، بل هو نوبى من الطرف الجنوبى فى صعيد مصر ، ويتطوع أحد الكبار فى الأسرة بإجابة مذهلة ، بل هو سودانى الأم مصرى الأب والمولد ، الوالد (**محمد السادات**) كان موظفا مدنيا ملحقا بالقوات المصرية فى السودان ، وعلى وجه التحديد فى الحملة الطبية التابعة لهذه القوات .

وتمر سنوات وسنوات وسنوات . .

والتقى بأنور السادات لقاء الأخ الأصغر بالأخ الأكبر فى استراحته بالمعمورة ، وبعد جلسة عمل طويلة ، يطلب السادات منى أن أشاركه العشاء على مائدة العائلة .

ينسحب وزيرا الخارجية ، اسماعيل فهمى ومنصور خالد ، وابقى معه فى صالة مطلة على البحر ننتظر موعد العشاء ، ويحوم الحديث حول ما كنا بصدده بعض الوقت ، ثم اذا بالحديث ينساب بغير قصد بعيدا الى ما كان يسميه عهد الشباب ، والشباب عند

السادات ليس سنوات من العمر كانت ، وإنما هى سنوات كانت هى النضال من أجل مصر ، وأجدنى استرجع معه كل ما كان وفى اطار ما كان ، يمتد بنا الحديث من الصالة المطلة على البحر الى مائدة العشاء العائلى ثم بعده بساعات ، أعيش خلالها معه فترة الإخصاب كما يسميها ، والتى بلورت أجنة الثورة فى مصر لتتبلور فى النهاية بمولد ثورة ٢٣ يوليو .

* * *

عن بوادر الوعى عنده يحدثنى ـ لدهشتى ـ عن ثورة ١٩٢٤ فى السودان ، تلك التى تحدث اليه عنها والده ، عن القوة الباسلة فى مواجهة القوة القاهرة وفى معركة ينقصها التكافؤ بين جنود وضباط سودانيين ، وبين ضباط وجنود الأمبراطورية .

يقول لى السادات ، أن فى مصر أكثر من شارع يحمل اسم على عبد اللطيف أحد أبطال هذه الثورة ، والتى ألهمته الى جانب بطولات عرابى وثورة ١٩١٩ وقبلها ثورة القاهرة الأولى والثانية ضد الحملة الفرنسية ، أنه ينتمى لشعب عنيد .

وأسمع منه فى هذه الليلة الكثير ، والذى وضع نقاطا كثيرة فوق حروف غامضة ، عايشتها وأنا على مشارف الوعى ثم مع اكتمال الوعى ، وأنا أتابع أنور السادات ضابطا مطرودا من جيش بلاده ، ومواطنا مقهورا من حكام بلاده ، ثم واحدا من الرموز اللامعة فى ثورة ٢٣ يوليو .

سمعت منه ليلتها الكثير وعرفت الكثير أيضا ، عرفت ما الذى أغرى شاباً من الطبقة دون المتوسطة أن يضحى بما يصعب

التضحية به . . نجمة لامعة على الكتف ، ومكاناً وسط صفوة فى جيش كان ضباطه من النبلاء أو على الأقل الهوامش العليا للطبقات القادرة ، وأنه لولا ظروف الحرب العالمية الثانية ، لما طاف حتى بخياله مجرد الحلم بأن يكون وسط هؤلاء سطوة وقوة ونفوذاً ، والأهم مستقبل مضمون ، وتدرج مضمون ، حيث رتبة البكوية فى انتظاره مع تدرجه الى رتبة القائمقام (عقيد) ، ورتبة الباشوية تقترن حتماً بوصوله الى رتبة اللواء ، ما الذى أغراه إذن أن يغامر بهذا كله ، الماضى والمستقبل ، ثم لماذا كان طريقه هذا الطريق ، خصومه جارحة مع الانجليز ، تعاون مع الألمان الى حد اتهامه بالتجسس ، اعتداء على جنود الاحتلال الى حد تعريضه حياته للخطر ، تامر على حياة واحد من أكبر صنائع المحتل إلى حد اتهامه بالقتل .

ولا يطول بنا الليل ، وأسمع منه . .

لقد كانت فترة الحرب العالمية الثانية حرجة بالنسبة لمصر ، الا أن فترة ما بعد الحرب كانت خطيرة .

فترة الحرب أحدثت ما يمكن أن نسميه بالتحرك الجيولوچى لطبقات الأرض ولكن على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والنفسى أيضاً ، طبقات من قاع المدن تحركت من موضعها لتحل محل الطبقة المتوسطة ، ولكن دون أن تستوعب اخلاقيات هذه الطبقة وأهمها الحس الوطنى ، كان الانفاق العسكرى البريطانى فى مصر باهظا ، بقدر ما كان التسيب داخل معسكرات قوات

الاحتلال غلاباً ، وهكذا بالإنفاق الباهظ ارتفعت أجور عمال الخدمات من المصريين داخل تلك المعسكرات ، وبما لا يقارن بمرتبات الموظفين والحرفيين ودخول صغار التجار ، وهكذا اتيحت الفرص امام لصوص المعسكرات ليغترفوا من كنوز أشبه بكنوز (على بابا) بالتواطؤ مع ضباط الامبراطورية وجنودها (البواسل) ، ومع هؤلاء وهؤلاء ، ظهرت بثور فى وجه المجتمع المصرى لم تكن معروفة من قبل ، الملاهى للترفيه عن جنود الحلفاء ، السوق السوداء ، والتى كانت نتاجاً لندرة السلع الغذائية ، والتى كان يبتلعها جيش الاحتلال بل وجيوش الحلفاء فى مصر تحت حجة دعم المجهود الحربى ، التجارة الرمادية فى المسروقات المشروعة من مخازن الجيش البريطانى ، هذا وغيره دفع بطبقات من حافة الحاجة الى ما هو فوق الاكتفاء ، كما انخفض بالطبقة الوسطى من حدود الكفاية الى حد المسغبة .

وفى اطار هذا التشكيل الجديد للخريطة الاجتماعية فى مصر ، تجردت الطبقة الوسطى من قدرتها على ممارسة دورها الوطنى تحت وطأة الأزمة ، بينما برز الى السطح وكنماذج سلبية ، ممارسات الطبقة الجديدة ذات الصوت المرتفع ، والذى كان يمجد من منطلق المصالح جيش الاحتلال ، ويتمنى بقاءه الى الأبد .

تلك كانت منطقة الحرج خلال الحرب العالمية الثانية ، وفيما يتعلق بالخطر الذى برز مع نهاية الحرب فلقد كان مزدوجا ، مصالح الطبقة الجديدة السابق الاشارة اليها ، وسطوة الانجليز السكارى بغرور القوة بعد انتصارهم على المحور ، ولهذا فلقد

كانت فترة الحــرب وما بعــد الحــرب ، تتطلب حــركة فى عدة اتجاهات .

يقول السادات . .

فى فترة الحرب ، كانت أى محاولة للمواجهة مع الانجليز ليس اكثر من مناطحة لصخر عنيد ، فلا الجبهــة الداخلية للظروف التى سبق الاشــارة اليهــا . . كانت على اســتعداد لمثل هذه المواجهــة ، ولا الظروف الموضــوعية كانت تســمح بمثل هذه المواجهــة ، فالانجليز رجــالا وســلاحاً يكاد يكونون فى كل شــارع خــاصة فى القــاهرة والاسكندرية ، ولذلك فلقــد اتجــه النضـــال الوطنى الى التوسل بالأمل فى معــادلة هذه القــوة بالقــوة التى تعـــاديها ، وهى ألمانيا رغم نازيتها ، ومع اقتراب الألمان من دلتا النيل ، خاصة بعد اجتياحهم ليبيا واختراقهم لحدود مصر الغربية واجتياحهم للســلوم ومطروح ووصــولهم الى العــلمين غير بعــيد من الإسكندرية ، فان الأمل فيهم لم يعــد مجــرد أمل ، تعــلقت عواطف الجماهير بهــم ، انطلقت شائعات عن الأسم الحقيقى (لهتلر) ، وهو الحاج محمد هتلر ، وأنه مســلم تمهـــل فى اعلان اســلامه لحين وصــوله الى القاهرة ، ليشهر عقيدته فى رحاب الأزهر . وانطلقت المظاهرات فى القاهرة تهتف الى الأمام يا روميل ، ولهذا فلقــد كان من الطبيعــى أن يندفع الســـادات بحســـه الوطنى فى تيار هذا الأمل ، ولكن بإيجابية من يعرف ان من يريد أن يأخذ عليه أن يعطى أولا .

هكذا شــارك فى التخـطيط لهـروب الفـريق عزيز المصرى الى

خطوط الألمان فى العلمين بطائرة سقطت على بعد عدة كيلو مترات من القاهرة ، وهكذا شارك قدر استطاعته فى دعم المجهود الحربى للألمان ، عن طريق مساعدة العناصر الألمانية التى تسللت الى القاهرة ، لتمهد لدخول الجيش الذى سوف يطرد الانجليز من مصر .

تلك كانت رؤيته لحدود دوره خلال سنوات الحرب .

وبعدها فإن نظرته تلونت بمعطيات الواقع الجديد . . الانجليز والنصر ، غرور القوة المدعومة بحكومات عميلة ، وهى مدانة ومدينة للانجليز ودبابات الانجليز فى وصولها الى السلطة ، ولقد كانت الرموز فى تلك الحكومات ، تدعم الطبقة الجديدة المدانة والمدينة أيضاً برخائها النسبى لوجود الإنجليز فى مصر ، ولكى تختل المعادلة وتعتدل الموازين ، كان يجب ان تطول الضربات الرؤوس بما يروع الأذناب .

وهكذا سقط (أمين عثمان) الصنيعة الأكبر للاحتلال البريطانى فى مصر ، وهكذا تدثر بالخجل على الأقل ، من كان يتبجح فى الدفاع عن الانجليز .

ويقول لى السادات . . خلال جلستنا الطويلة فى الصالة المطلة على البحر فى استراحته بالمعمورة .

أظن وقد لا يكون فى هذا الظن أثم ، أن مصرع أمين عثمان ، كان بداية لصحوة الحس الوطنى لقيادة حزب الوفد ، صحوة أو تأنيب ضمير أو ربما الخوف من مصير أمين عثمان ، قد تكون

وراء قرار حزب الوفد سنة ١٩٥٠ بالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وربما تكون أيضاً ، قد هزت الآلاف من المصريين العاملين فى معسكرات الجيش البريطانى ، فكانت استجابتهم العظيمة لقرار حكومة الوفد أيضاً بالانسحاب من العمل هناك .

ربما . . يقول السادات

ويعود من الباب الخارجى لاستراحة المعمورة الى الداخل ، وأعود الى حيث أقيم فى قصر رأس التين ، وقد اتضحت ملامح كانت غامضة لأحداث الأربعينات فى ذهنى . .

* * *

فى مطار دنقلا . .

يصافحنى من يودعنى فى وجوم ، وكأنهم غيرهم ، هؤلاء الذين استقبلونى فى نفس المطار قبل اربعة وعشرين ساعة .

جئت الى المدينة ومنها للقرية ، وفى القلب أفراح وأشواق الى أهل وأحباب ، أغادر القرية والمدينة عائدا الى الخرطوم ، وفى القلب ما هو أكبر من الحزن وأقسى من الدموع .

جئت والسادات حياً ، وأعود للخرطوم والسادات فى رحاب الله .

* * *

الفصل الثانى

السادات .. موعد مع العاصفة

- مخاطر محسوبة ومخاطر مرفوضة
- فلنتمايز لنكون هدفا مكشوفا
- غياب السادات وغياب الدموع لماذا ؟
- الأزمة وتجاوز الأزمة فى ١٥ مايو
- حرب يونيو كما يراها السادات
- ناصر والسادات : تطابق فى الفكر واختلاف فى الظروف ، فاختلاف فى الأسلوب
- سنوات ما بعد النكسة
- المعركة المأمولة ، بين المزايدة والأعداد

عند وصولى لمطار الخرطوم أبلغنى النائب الأول لرئيس الجمهورية ، بأنه قد فرغ من تشكيل الوفد السودانى برئاسته ، والذى سيسافر الى القاهرة للاشتراك فى تشييع جنازة الرئيس السادات . أخبرته بأن الوفد سيكون برئاستى ، وأضفت اننى ظننت أن هذا واضحا منذ ان طلبت طائرة تنقلنى من دنقلا الى الخرطوم .

واصلنا الحديث فى الصالون الملحق بالمطار ، أعاد تفصيلا ما سبق ان اشار اليه فى المكالمة التليفونية ، حول قرار مجلس الأمن القومى ، وأضاف اليه الجديد .

* إن هناك مخاطر ماثلة تتعدى شخصى الى كل المشاركين فى الجنازة ، فما زالت الظروف التى أحاطت بحادث الاغتيال غامضة ، وليس معروفا مدى تغلغل مجموعة الاغتيال داخل القوات المسلحة المصرية والتى تشارك فى تشييع الجثمان .
* إن القاهرة أعلنت أن الرئيس السادات سيدفن تحت النصب التذكارى المواجهة لمنصة العرض التى شهدت حادث الاغتيال ، وان المنطقة مكشوفة يصعب حمايتها ، فهى من ناحية متصلة بحى مصر الجديدة ، ومن ناحية اخرى متصلة بمنطقة الجبل الأحمر .

* إن القاهرة التى أعلنت حالة الطوارىء لمدة سنة كاملة ، من الواضح أنها تملك من المعلومات ما يحتم هذا الاجراء ، وهى معلومات تتصل بظروف الأمن ، ولهذا فان حالة الطوارىء على مدى عام كامل ، تشير على الأقل ان حالة الأمن فى القاهرة ليست مستقرة تماما .

* إن القاهرة أيضاً اعلنت ان جنازة الرئيس السادات ستكون جنازة عسكرية ورسمية ولن يشارك المواطنون فيها ، وذلك يعكس أيضاً مخاوف أمنية .

* إن ظروف حادث الاغتيال نفسها ، تشير الى أن المقصود لم يكن الرئيس السادات وحده ، وإنما معه كل القيادات السياسية والعسكرية فى مصر ، واذا كان هذا الهدف لم يتحقق بحمد الله أثناء الحادث ، فما الذى يمنع تكرار المحاولة أثناء الجنازة ، خاصة ان الأهداف المطلوبة من القيادات العسكرية والسياسية ستكون متواجدة اثناء الجنازة ، وفى وضع أفضل للمتآمرين من وجودها فوق المنصة ، إذ أنها ستكون متحركة بحيث يصعب حراستها .

* إن إذاعات بعض الدول العربية خاصة إذاعة ليبيا ، ما زالت تدعى انها وراء حادث الاغتيال ، وإن العناصر الموالية للفريق (الشاذلى) ما زالت موجودة ونشطة داخل القوات المسلحة المصرية ، وقد يكون هذا صحيحاً أو لا يكون ، المهم انك بالنسبة لليبيا هدف مطلوب .

* إنك لو حضرت تشييع الجنازة ، فلسوف تكون الرئيس العربى الوحيد الذى يشارك فيها ، ولسوف يكون ذلك مثيرا ومثيرا جدا بالنسبة لبعض عناصر التطرف العربى ، وقد يكون ذلك مدخلا لمغامرة غير مأمونة .

* إن شعب مصر لا يحتاج من السودان ما يؤكد مشاركته له فى

أحـزانه ، سـواء حضرت أو لم تحضر ، فإن مشـاعر الشـعبين واضحة .

* إننا ومنذ أعلن نبأ استشهاد الرئيس السادات وتنفيذا لتعليماتك ، قد فتحنا أبواب قصر الشعب للمواطنين ليتقدموا بواجب العـزاء ، والذى يتلقاه سفير مصر فى الخرطوم ، كما كانت تتلقـاه أيضـاً القيادات العليا فى السودان وعلى رأسـها نواب رئيس الجمهـورية ، وقد تكررت هذه الظاهرة فى الأقاليم وبصور عفوية .

ولذلك ، فأنت لست مطالبا بالسـفر الى مصر لتشـارك أو تقـدم العزاء ، لأنك تتلقاه مع شعب مصر ونيابة عنه هنا فى الخرطوم .

* إن مجلس الأمن القومى لهذه الاعتبارات جميعا ، كان قد اتخذ قراره بأن ينوب عنك النائب الأول لرئيس الجمهورية فى السفر الى القاهرة والمشـاركة فى تشـييع الرئيس السـادات ، وانه اتخـذ هذا القرار ليس لمجـرد حمايتك كشخص ، وانما كرمز يتوجـب حمايته بمقتضى الدستور .

ويصمت لحـظة فأسـأله هل انتهـيت . . ؟ يجيب . . هناك ما هو خـارج تقـرير لجنة الأمن القـومى الذى قرأته عليك الآن ، هناك اشارات غامضة يذيعها راديو طرابلس فى شكل أوامر صادرة باسم الفريق سعد الشـاذلى ، لتحـريك قوات وتوجيهـها فى شـوارع القـاهرة ، وقد يكون هذا صـحيحاً وقد لا يكون ، والسـؤال المطروح ، هل تبلغ الحماقة مثل هذه الدرجـة من الكذب والإدعاء ، أم أن هناك احتمالاً مجـرد احتمال بأن القيادة المصرية لا تحكم السيطرة على مقاليد الأمور فى القاهرة بصورة كاملة .

وأسأل مرة أخرى . . هل انتهيت . . ؟

يقول .. نعم ..

أقول .. إذن فان قرارى مع تقديرى لمبررات قرارات مجلس الأمن القومى ، هو أننى سأسافر على رأس الوفد السودانى الى القاهرة .

وقبل ان اسمعه يعقب أضيف .. وعلى اعضاء الوفد أن يحملوا معهم الملابس القومية السودانية ، الجلباب والعمامة والعباءة ..

ويسأل .. لماذا ؟

وأجيب .. حتى نكون مميزين عن غيرنا فى الجنازة ، ولنكون وسطهم أهدافاً شهيرة يمكن توجيه النيران إليها بسهولة .

ويسأل مرة أخرى ..

حتى (جوزيف لاقو) عضو المكتب السياسى والرئيس السابق للمجلس التنفيذى العالى للاقليم الجنوبى ، انهم فى الجنوب غير معتادين على ارتداء هذا الزى ؟

أقول ..

حتى هو ، خصوصا هو ، حتى اذا اطلقت النيران علينا ، نكون كشهداء ممثلين للسودان كله شماله وجنوبه .

* * *

على مقعدى فى الطائرة أشعر كأن القاهرة بعيدة جدا ، كم من المرات اتجهت بى مثل هذه الطائرة شمالا ، عشرات المرات منذ زيارتى الأولى للقاهرة فى أوائل الخمسينات ، بداية عمر ، وصدر شباب ، ودنيا من ضيق الطموح تكاد تضيق بى .

رحلة الى القاهرة لقضاء اجازة ، رحلة الى القاهرة للتدريب على الطيران ، واخرى للتدريب على المدرعات ، ورحلة ثالثة للاشتراك فى طابور الاحتفال بجلاء الانجليز من مصر ، رحلات التدريب فى المدارس العسكرية تميزت كل منها بذكرى .

واحدة منها ، كان مدير مكتب قائد المدرسة الجوية هو اليوزباشى حسنى مبارك ، رجل الساعة والأحداث فى مصر ، وفى نفس المدرسة التقيت بعبد الناصر للمرة الأولى ، كان فى زيارة للمدرسة ، وعلم بوجود سودانيين بين الطلبة ، زميل لى وأنا ، طلب منا أن نتقدم ونجلس بجانبه ، جلسنا ، خاطب الطلبة وهيئة التدريس وانصرف . ايامها كانت أيام أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، أزمة الصراع على السلطة فى مصر ، بين نجيب وانصاره ، وعبد الناصر وزملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

الرحلة الدراسية الثانية ، التقيت أيضاً بعبد الناصر ولكن فى الطريق العام هذه المرة ، كنت مع الزميل (اللواء متقاعد عوض أحمد خليفة) ، اليوزباشى يومها ، نسكن ضاحية مصر الجديدة ، الزمان ، الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، أيام العدوان الثلاثى على مصر ، الوقت بعد الغروب بقليل ، ضجة تخترق نوافذنا من الشارع الذى يطل عليه المسكن ، الذى نقيم فيه ، هبطنا الى الطريق ، الظلام شامل للوقاية من الغارات الجوية التى كانت نشطه فى تلك اللحظة ، نقترب من مصدر الضجة ، نلمح وسط الظلام كتلة بشرية تحيط بسيارة مكشوفة ، هتافها يعلو ، ضجيجها يتصاعد ، من فى داخل العربة . . ؟ نقترب أكثر ، نلمحه ،

جمال عبد الناصر فى سيارة مكشوفة ، والجماهير التى تجاهلت خطر القصف الجوى من طائرات لا يسترها حتى الظلام تزاحمت حوله ، وباحساس الجنود المسئولين عن حماية القائد ، تقدم زميلى وتقدمت معه ، أبعدنا الجماهير الذى ذهب بصوابها الحماس ، فانطلقت عربة القائد محروسة بالمحبة .

ثم تكررت الزيارات للقاهرة ، تشابهت كلها الا مرات قليلة ، إلا أنها ليست فى قسوة هذه المرة . ساعة وبعض ساعة وتهبط الطائرة فى مطار القاهرة ، لن أراه هذه المرة بقامته الفارعة ، لن أسمع هذه المرة صوته الجهورى يسبق عناقه ، مرحبا يا أخ (جعفر) ، لن يكون هذه المرة قريبا من سلم الطائرة ، لن يكون حتى بعيدا فى الاسكندرية أو الاسماعيلية لأهبط من طائرة وأركب أخرى لألتقى به .

لن يكون أنور هناك ، رغم انه ملء القلب والوجدان .

مرة أخرى رحلة الى القاهرة لا يرافقنى فيها الا الدموع .

مرة أخرى وكأن الزمن لا يكرر الا النكبات . مرة أخرى بفارق زمنى ، احد عشر عاما وثمانية أيام ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، اتوجه للقاهرة لأشيع جمال عبد الناصر . ٨ أكتوبر سنة ١٩٨١ ، أتوجه للقاهرة لأشيع محمد أنور السادات .

وبين رحيل من سبق ، وبين رحيل من لحق تشابهت الأحداث ، وان كنت أدعو الله الا تتماثل النتائج .

* * *

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، أجد نفسي في مدينة لا أكاد أعرفها ، هي الصمت ، هي الحزن ، هي الوجوم ، هي دموع تكاد تذرفها جدران المباني وانحناءات الطرق فلقد رحل ناصر .

كانت العين ايامها سخية بالدموع ، أين اجد اليوم الدموع ، رغم ان الراحل كالراحل ، أخ شقيق عزيز وغال ، ربما لأن الدموع انفعال حزن ، بينما افتقاد الدموع انفعال بصدمة لا تختزل الأحزان وإن كانت تجمدها ، تضعها بعيدا عن حركة العقل حتى يتاح له ان يعيد ويستعيد المشاهد ، في محاولة هي اليأس لاعادة التوازن لحركة مختلة ، وصورة مقلوبة ، ونهاية لا تتناسب مقدماتها مع نتائجها .

رحل ناصر كما رحل الملايين وكما سيرحل البشر جميعا ، كان هناك ما يشبه التأهب لرحيله ، تناقلت الشائعات أخبار مرضه ، سافر الى الاتحاد السوفيتي عدة مرات بقصد العلاج وحده ، تناقلت الصحف العالمية وتقارير وكالات الأنباء تطورات المرض بل وأشارت الى خطورته ، وحتى وسط الدائرة الضيقة القريبة منه ، فما الذى يمنع الأقربين اليه من ان ينقلوا الى الأقربين منهم تطورات مرض الرئيس ، وتتصاعد دائرة الهمس همسا ، فيعلم الجميع بالسر ولكنهم لا يتداولونه علنا ، ثم انه وفي الشهور السابقة على رحيله ، كانت ملامحه تشير الى مواجعه اذا خاطب الجماهير لفترة تطول ، اذا واجه الجماهير بهالات حول عينيه ، اذا غابت اخباره بعض الوقت ولبعض الوقت عن صفحات الصحف .

كانت الدلالات تشير ، وفى اطارها كان رحيله ، عملاق هوى ، وعزيز غاب ، ومن ذا الذى يملك أمام ارادة الله حين يسترد وديعته الا التسليم والحزن ، لا مجال للعقل ليفكر ، لا مجال ، لا أسئلة تطرح ، كيف ولماذا . . ؟

وحينما ينزوى العقل مسلما بعجزه عن أن يطرح سؤالا ، مسلما بيأسه من أن يحصل على اجابة ، فانه يفسح المجال للحزن دمعا وانفعالا .

ربما لهذا سخت العيون بالدموع يوم رحل ناصر ، وربما كانت العيون تطرد الدموع حتى لا تحجب عنها الرؤية ولو للحظة يوم غاب السادات لتدقق النظر بحثا عن اجابة لألف سؤال وسؤال .

لماذا قتل السادات ؟ ، من قتل السادات ؟ ، هل للقتلة شركاء ، واذا كان فمن هم ؟ ، واذا لم يكن فكيف تجرأوا ؟ ، كيف تتجمع الدولة كل الدولة بوليسا وأمنا وجيشا وفى مكان واحد ، وفى نفس المكان يقع الحدث الجليل ، أين كان حرسه الخاص ، هل التقصير فى حراسته كان اهمالا ام تواكلا ام خيانة ؟ .

كيف توقفت عربة المدفع ؟ ، لماذا لم يتحرك احد لتوقفها المفاجىء ؟ ، كيف وصل القتلة الى المنصة ؟ ، كيف تجمد الكل وهم يتقدمون ؟ ، يصعدون درجاتها ، يلتفون حولها ، يفرغون الرصاص ويلقون القنابل بل ويحاولون الهرب وهم محاطون بجيش كامل .

ثم لماذا فى هذا اليوم بالذات . . ؟

يوم لا يختلف عليه أنصاره وأعداؤه ، يوم مجد ويوم عبور ، ويوم هو يوم اعتزازه واعزازه لجيش بلاده ، نفس الجيش الذى خرج من بين صفوفه ملازم ليطلق الرصاص عليه ، ورقيب يشهر سلاحه نحوه ، وهل معقول ان هؤلاء بغير شركاء داخل الجيش أو خارجه ؟ .

هل القضية فرع من قضايا ؟ ، هل هى ثأر عربى من زيارته للقدس وتوقيعه للمعاهدة ؟ ، هل هى مضاعفات الفتنة الطائفية ؟ ، هل هى ذيول قرارات ٥ سبتمبر ؟ ، ثم من الذى سقط غيره ؟ ، ومن الذى يمكن ان يسقط بعده ؟ ، ثم ماذا عن الخارج ؟ ، خارج مصر ، هناك اذاعات وبيانات وأناشيد عسكرية تذيعها محطات عربية ، وكأنها نالت ثأرها من الذين يحتلون القدس والهضبة والضفة ، هل هم اطراف فى المؤامرة ؟ ، هل هم شركاء ؟ ، ثم ماذا بعد موت السادات ؟ ، ماذا بالنسبة لسياسات وضعها وعلاقات اقامها وأرض مصرية ما زالت تحتلها اسرائيل ؟ ، هم لا ينسون رغم الحدث بل هم يذكرون بسبب الحدث ، تصريحات حديثة لرئيس الأركان الاسرائيلى يقول فيها ان السلام فى مصر هو ارادة السادات وحده ، فاذا غاب غاب معه السلام .

اسئلة ، عشرات الأسئلة ، مئات الأسئلة لا تحجر على الأحزان ، الا أنها تحجب عن العين الدموع ، ففى ساعات الخطر وليس الخطر الا اسئلة بغير اجابة ، فان العقل ينشط ، ووقتها فلا مجال رغم الحزن لترف الدموع .

* * *

مطار القاهرة مرة أخرى ..

ولكن بين القليلين الذين يتجمعون عند سلم الطائرة ، لم يكن السادات بالطبع هناك .

يوم رحل ناصر ايضا ، لم يكن السادات هناك كان على موعد مع العاصفة ، وما أكثر العواصف فى حياته .

والذين شاهدوا السادات فى تلك الأيام الحزينة التى توسطت رحيل عبد الناصر وتشييعه الى مقره الأخير ، ربما يكونون قد قارنوا بين الرجل منفعلا يوم العاشر من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وهو يعلن من فوق منصة مجلس الأمة ان عبد الناصر قد استجاب لطلب الملايين وقرر البقاء فى موقع المسئولية ، وبين السادات نفس الرجل جامدا صامدا صامتا أغلب الوقت ، فى تلك الأيام التى تلت رحيل عبد الناصر ، ولقد قدر لى أن أعيش أحداث تلك الأيام وعلى مقربة منها .

كان على السادات كنائب أول لرئيس الجمهورية مسئولية الاشراف على نقل السلطة فى اطار المؤسسات الشرعية ، ولم يكن ذلك ميسورا كما قال لى بعد ذلك لأسباب وأسباب :

* كان هناك أعضاء مجلس الثورة السابقون ، ولقد كانوا بالنسبة لكل الأطراف ، شركاء فى التركة باسم الشرعية الثورية .

* كان هناك رجال الصف الثانى يوم اعلان ثورة يوليو ، وهم الذين اصبحوا رجال الصف الأول وخاصة بعد رحيل المشير عبد الحكيم عامر ، ولقد كان هؤلاء هم الأقرب من عبد الناصر ، بحكم أنهم كانوا عيونه وسواعده وأدواته ، خاصة فى المؤسسات والأجهزة ذات

الصلة بمسئوليات الحكم وداخل مؤسسات السيادة . .

* كان هناك مجموعة التنظيم السياسى ، سواء من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ، أو قيادات التنظيم الطليعى ، ولقد كان هؤلاء بحكم الصلة المباشرة بالجماهير يظنون انهم اصحاب التركة وأصحاب الحق كله ، أو على الأقل بعضه من ميراث الزعيم فى السلطة .

* لقد كانت هذه الأطراف جميعا ، تؤمن أن جمال عبد الناصر كان هو المؤسسة الأولى والوحيدة والأخيرة ، وان شرعية كل المؤسسات انما كانت متعلقة بوجوده ، وانه لا شرعية للمؤسسات بعد غيابه ، فلا مجال للاحتكام اليها ، فضلا عن الاعتماد عليها او حتى الاطمئنان لها .

* إن هذه المجموعات ، رغم عميق اقتناعها بأن المؤسسات كانت الزعيم ، وانهم بأشخاصهم هم ورثة سلطته كما هم ورثة تراثه ، الا أنهم لم يكونوا على وفاق ، فضلا عن أن يكونوا على اتفاق .

* إن السادات كنائب أول لرئيس الجمهورية ، كان عليه ان يكسب الوقت بالصبر حتى لا يتفجر الصراع على السلطة ، وجثمان من رحل ما زال بعد لم يدفن تحت التراب ، والأهم أن تراب الوطن كله ، كان مهددا بعدو يحتل كل الضفة الشرقية لقناة السويس ، وليس هناك ما يمنعه من استغلال أزمة للقفز الى الضفة الغربية منها .

* إنه حاول ونجح كما قال لى السادات ، وليس له من سند وسط تلك المجموعات ، سوى (محمد حسنين هيكل) ، والذى لم يكن فى الحقيقة منهم ، لأنه كان مفروضا عليهم من جانب الرئيس جمال عبد الناصر .

وبصبر يفوق الصبر ، كما يصف تلك الأيام مرت تلك الأيام ، الى ان حل يوم الجنازة .

ولقد تصادف اننى كنت الأقرب اليه فى صفوف المشيعين ، واقتربت منه فتشابكت آيادينا ، لاحظت انه لا يستطيع ان يغالب دموعه ، وفجأة احسست ان يده تضغط على يدى ، قلت له :

حاول ان تتماسك انها ارادة الله . .

وسمعته يقول :

انها دموع مؤجلة يا جعفر . .

وأحسست به يترنح ، ثم يتهاوى ، وقبل ان يسقط على الأرض ، كأن هناك من تقدم لمساعدتى حتى تمكنا معا من منع سقوطه على الأرض ، نقلوه الى مبنى قيادة الثورة بالجزيرة ، حيث كان ظن الأطباء فى البداية أنها نوبة قلبية ، الا انه قال لى بعدها ، انها واحدة من آثار العاصفة . . ولم تكن بالطبع آخر العواصف .

* * *

بعد ذلك بعدة شهور ، وفى الرابع عشر من مايو سنة ١٩٧١ على وجه التحديد ، جاء من يطرق على الباب بعد منتصف الليل بقليل ، ليحمل لى رسالة عاجلة من وزير الاعلام ، الرسالة تقول :

« حاولت الاتصال تليفونيا ، ولكن يبدو ان رنينه لم يصل اليك ، أو أن تليفونك معطل ، على كل أطلب ان تأذن لى بالحضور الآن ولأمر عاجل » .

دهشت ، فصاحب الرسالة هو عمر الحاج موسى وزير الاعلام ،

وهو رجل هادىء ، يميل دائما الى الاستهانة بالمشاكل ، ويفضل التعامل معها على مهل وهو الذى يردد دائما ، انه بالنسبة لأعقد القضايا فإن الوقت المناسب لحلها ، يستطيع دائما ان ينتظره .

ثم ان الرجل وزير اعلام ، لا شأن له بقضايا الأمن ، والتى تتطلب وحدها الاتصال العاجل والاجراء السريع .

سمحت له بالحضور ، حضر . . كانت الساعة قد جاوزت الواحدة صباحا حينما نقل الى ما جاء بشأنه . تعجبت للرجل ، أو على الأصح ما يشاع عنه ، (فعمر الحاج موسى) ، كان يتردد عنه ما لم يحاول نفيه من انه ليس من هؤلاء السودانيين المتصوفين فى حب مصر ، بل هو أقرب الى الذين يؤمنون بأن علاقة متوازنة بين مصر والسودان ، لا هى عداء ولا هى اندفاع ، هى العلاقة الأفضل بين السودان ومصر ، وهى بهذه الصورة للسودان افضل .

لذلك كانت دهشتى مما حمله الى ، وأكثر من ذلك قلقه الواضح بشأنه ، ولقد شاركته القلق فلقد كان ما يحمله خطيراً .

قال . . ان اذاعة القاهرة أعلنت فى نشرة أخبار الحادية عشرة ، بأن معظم الوزراء فى مصر قدموا استقالاتهم ، بالاضافة الى قيادات فى الاتحاد الاشتراكى العربى ، وقيادة الجيش ، وان الرئيس السادات قد قبل هذه الاستقالات .

كان الأمر بهذه الصورة أقرب إلى أن يكون انقلابا داخل السلطة فى مصر ، ولذلك فلقد كان قرارى هو السفر الى مصر فورا .

راجعنا الخطوط الجوية السودانية ، فأفادت بأن طائراتها بعضها معطل ، وبعضها فى سفريات خارج القطر ، ولن تعود الى الخرطوم الا بعد ظهر اليوم التالى ، راجعنا شركات الطيران الأجنبية ، فعلمنا ان الطائرة الوحيدة التى تغادر الخرطوم الى القاهرة فى ساعة مبكرة من الصباح ، هى طائرة المانية تابعة لشركة (لوفتهنزا) .

طلبت حجز عدة مقاعد عليها ، وهنا اثيرت مشكلة بروتوكوليه واخرى سياسية .

الأولى كما قال مدير الخطوط الجوية الألمانية انها سابقة لم يسبق لها مثيل ، ان يسافر رئيس دولة فى طائرة تجارية وفى رحلة عادية ومع عشرات الركاب العاديين ، وانه بالاضافة الى ما يمكن ان يسببه ذلك من حرج للشركة الناقلة ، فانه لن يكون هناك ضمانات أمن كافية لمواجهة مفاجآت غير منظورة .

ولقد كان من السهل تجاوز هذه المشكلة باعتبارها قضية شكلية ، بقيت المشكلة الأهم ، وهى ان علاقات السودان الدبلوماسية كانت مقطوعة فى ذلك الوقت مع المانيا الاتحادية والتى تتبعها نفس الطائرة ، والسؤال الذى طرحه الجميع ، كيف يمكن لرئيس دولة أن يستخدم طائرة دولة اخرى ، بلغ توتر العلاقات بينهما حد قطع هذه العلاقات ، ومرة أخرى تجاوزت الشكل فيما يخص هذا الجانب .

وهكذا توقفت الطائرة فى مطار القاهرة فى باكورة اليوم التالى لأهبط منها وأتوجه على الفور للقاء الرئيس السادات .

* * *

شوارع العاصمة المصرية صدمتنى ، فلم يكن هناك اى مظهر يعكس حجم الأزمة كما تصورتها ، لا وجود لقوات الجيش ولا حتى لقوات البوليس ، الحياة تنساب بصورة عادية ، لا تجمعات ، لا مظاهرات ، لا شيء يوحى بأن القاهرة تعيش ظروفاً غير عادية .

مع السادات طال بنا الحديث . .

سألت . .

لماذا كانت الأزمة ؟

أجاب . .

من أجل الحفاظ على المؤسسات

وأسأل . .

كيف واجه الأزمة ؟

يجيب . .

بالمؤسسات . .

وانقل عن مذكراتى فكر السادات ورؤيته لأحداث ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، واعجب فى الوقت نفسه ، كيف اتسع له هدوء البال فى ذلك اليوم المشحون بالأحداث ليحلل ، بل وكيف اتسع أمامه الوقت يومها ، ليقتطع منه ساعات ليستعرض جذور الحدث ولا يكتفى بنتائجه .

ولقد كان غريبا بقدر ما كان مثيرا ، أن السادات كان يقطع

روايته ليطلع على تقرير عاجل، أو يرد على مكالمة تليفونية، أو يستمع لهمس أحد مساعديه، أو يوجه بإجراء، ثم يعود ليواصل كأن حديثه لم ينقطع لدقائق بعضها كان يطول.

اليوم كان مشحوناً بالأحداث، أو على الأقل بمضاعفاتها المحتملة كما قلت، وزراء الداخلية والاعلام، والحكم المحلى، وقائد الجيش، ومدير المخابرات، وقيادات التنظيم السياسى كلهم قدموا استقالاتهم. فى لحظة واحدة. وكان قد قبلها بضربة واحدة، مراهنا على قدرته على قبول التحدى.

أسأله عن حالة الأمن، فيقول.. مستتب من (أسوان) حتى (الاسكندرية)، ويضحك، بل هو مستتب من (جوبا) الى (رشيد)، ألسنا بلدا واحدا ؟.

أسأله عن تحرك محتمل من جانب التنظيم السياسى والذى كان حتى الأمس تحت سيطرة من قدموا استقالاتهم، فيقول.. لو كان يتحرك بهم لتحركوا به، بدلا من استقالات فردية وان اتخذت صورة جماعية.

أسأله.. عن مجلس الأمة

يقول.. لهم بقية ما لا يزيد الا قليلا عن عشرة أعضاء بالإضافة الى رئيس المجلس.

أسأل عن الأوضاع على الجبهة..

وأفاجأ بانسحاب مظاهر الاطمئنان من ملامحه للمرة الأولى وأسمعه يقول:

ذلك ما لم يكن فى حساباتهم بل ربما كان ، كانوا دائما يتعجلون معركة محسوبة النتائج ، اضافة الى مسلسل الهزائم المتكررة ، بإستثناء معركة سنة ١٩٥٦ ، والذى كان شقها العسكرى هزيمة ، وشقها السياسى انتصاراً ، هم يعرفون بحكم مواقعهم ان إستعداداتنا لم تكتمل ، ما زال بيننا وبين وفاء السوفيت بوعودهم جبال من الجليد ربما تفوق تلك المتراكمة فوق سهول سيبيريا ، بالاضافة الى أن عمق مصر لم تتوافر حتى الآن امكانيات حمايته بالكامل من طلعات الطيران الإسرائيلى ، كما أن عمقها السياسى ما زال مكشوفاً أيضاً ، فرغم التعاطف العربى معنا بعد رحيل عبد الناصر ، الا أن المطلوب من العرب هو التضامن وليس التعاطف ، والفارق بينهما كبير وخطير .

ويقول السادات . .

كانوا يتعجلون معركة وكنت أعرف نواياهم ، كانوا يحاولون معى ما حاوله وللأسف ونجح فيه عامر مع ناصر ، كان فى كل مرة ينشب فيها بينهما خلاف ، كان المشير يسارع بفتح ملف مضانق (تيران) وحقيقة مرور السفن الاسرائيلية عبرها ، احدى النتانج المستورة لعدوان ١٩٥٦ . ولقد كان عبد الناصر يعرف أن الاقتراب من هذه القضية هو ملامسة خطرة ، كان تقديره والذى ثبت بعد ذلك صحته ، أن محاولة المنع ، بل مجرد التلويح بمنع السفن الاسرانيلية من المرور فى مضانق (تيران) يعنى وعلى الفور اعلان حالة الحرب بين مصر واسرانيل ، وكان عامر بغير جدال يعرف هذه الحقيقة أيضاً .

وهكذا ، وبينما كان عامر يمارس هذه اللعبة بقصد الضغط ، كان ناصر يتحاشى التعامل معها خشية التورط .

وهكذا كان عامر يكسب دائما ، إلى أن كان يوم سافر فيه عبد الحكيم عامر فى مهمة رسمية الى باكستان ، وكان قبل السفر مباشرة قد اشتبك فى واحد من خلافاته الدورية مع جمال ، وهى خلافات ، لم تكن تتعلق بعمله كقائد للجيش ، ولا حتى كرئيس لإتحاد كرة القدم ، بل ولا تتعلق بممارساته كرئيس لجنة تصفية الاقطاع ، وانما كانت هذه المرة وككل مرة ، تتعلق بإمتيازات طلبها عامر لأحد الأفراد ، فرفضها ناصر ، إستثناءات تتعارض مع القانون فأوقفها جمال .

سافر عامر الى باكستان ، وفى قلبه الطيب ـ ولقد كان رحمه الله طيب القلب بالفعل ـ وان كانت مأساته بداية ونهاية من مسئولية غيره ممن أحاطوا به . سافر عامر كما قلت ، وقلبه الطيب مشحون بالغضب من جمال ، وفور وصوله الى (كراتشى) ، أرسل برقية الى جمال عبد الناصر ، عبر السموات المفتوحة ، يطالبه فيها بإغلاق مضائق (تيران) .

يضيف السادات . .

انه لا يستطيع أن يحدد نوعية الأسباب والتفاعلات التى دفعت جمال عبد الناصر الى تصعيد التوتر فى سيناء ابتداء من النصف الأول من مايو سنة ١٩٦٧ ، والذى انتهى بعدوان يونية من نفس العام . إلا أنه يستطيع ان يجزم بأن قرار ناصر بإغلاق مضائق

تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، كان فى جانب منه على الأقل ، محاولة من جمال للتخلص من ورقة الضغط الخطرة التى كان يطرحها عبد الحكيم عامر لتسوية أى خلاف مع عبد الناصر ولصالح المشير .

ولقد يكون اغلاق مضائق (تيران) أحد أسباب العدوان أو لا يكون ، الا أن عبد الناصر كان يقول للسادات أحياناً ، ان معركة يونيو سنة ١٩٦٧ فرضت عليه من الداخل والخارج بصورة تكاد تكون متوازية .

معركة من الخارج خططت لها اسرائيل ونسجت كل خيوط استدراج مصر اليها ، ومعركة من الداخل فرضتها مزايدات عبد الحكيم عامر ومجموعته ، ولتحقيق أهداف أبعد ما تكون عن الحرب والمعارك .

ويقول السادات . .

وهكذا حاول الذين استقالوا بالأمس من مناصبهم الضغط للدخول فى معركة لم استكمل مقومات النصر فيها ، أو التفريط لهم فى شرعية السلطة وحكم المؤسسات والقانون تجنبا للتورط ، ولأننى شريك فى تجربة جمال فلقد تعلمت منها بقدر ما شاركت فيها ، ولذلك فإننى لا أكرر خطأ ما كان يكرره جمال لو امتد به الأجل ، ألا أحاول تصفية مراكز القوى بمعركة مع العدو لا أضمن نتائجها ، وإنما أبادر بتصفية مراكز القوى تمهيدا لمعركة أكون واثقا من نتائجها .

ويعود السادات ليحلل . .

إن بصمات الأصابع لا تتشابه بين البشر ، هؤلاء الذين ولدوا وهؤلاء الذين سيولدون ، اعجاز الخالق بغير شك ، إلا أن هذه الظاهرة وفى جانب منها ترجع الى اختلاف الظروف التى تحيط بتكوين كل جنين ، فروق بعضها دقيق يكاد لا يقاس كما فى حالات التوائم ، الا أنها فروق تفرض الاختلاف وتمنع التكرار ، هكذا الزعامات ، فعبد الناصر رغم مواهبه ـ ولقد كان موهوبا بالحق رحمه الله إلا أن الظروف التى حددت له أسلوباً مميزا فى القيادة ، لا تتوافر لغيره ، حتى ولو كان الفارق بينهما بمقياس الزمن مجرد ساعات .

فالظروف التى تحدد اسلوب القيادة تظل مرتبطة بالقائد كظله لا تفارقه ، حتى ولو حاول ان يغيرها فانها لن تتغير ، هكذا عرفه الناس والثورة ، هكذا يتقبلونه كله ، أو يرفضونه كله ، ولا مجال لأنصاف الحلول .

اسلوب عبد الناصر فى القيادة وبهذا المقياس ، كان نتاج ظروف واسير نفس الظروف أيضاً ، كان بكل المقاييس تمردا على شرعية قائمة ، شرعية حكمت مصر كأسرة متصلة لأكثر من مائه وخمسين سنة ، شرعية لها الولاء من كل المؤسسات بما فى ذلك المؤسسة الدينية ، والتى تطرفت فى آخريات أيام فاروق ، فنسبته إدعاء الى بيت رسول الله .

شرعية لها الولاء أيضاً من جانب المؤسسات الحزبية وعلى رأسها حزب الوفد ، أكثر الأحزاب شعبية فى تاريخ مصر

الحديث ، بل وهى شرعية لها الولاء حتى من جماعة الاخوان المسلمين ، والذى يفترض نظرياً أنها ترفض وراثة الملك وتنادى بالبيعة ، ومع ذلك فلقد أعلن المرشد العام للجماعة ، الشيخ (حسن الهضيبى) قبل شهور من الاطاحة بالملك ، انه تشرف بزيارة كريمة لملك كريم .

شرعية لها حتى مقومات القوة ، فشعار الجيش كان الله ، الملك ، وأخيراً الوطن ، وكان نشيد الجيش . حفظ الله الملك .

شرعية لها ضمانات الحماية الأجنبية ، وهى ليست مجرد اعترافات دول ، وانما جيش احتلال كامل يصل مجموع أفراده الى الثمانين ألفا ، بينما قواته الاحتياطية المرابطة فى (قبرص) تتجاوز هذا العدد ، وأسطوله المسلح يحيط بمصر ، فى بحرها الأبيض وبحرها الأحمر .

كان (عبد الناصر) إذن تمردا على الشرعية ، ولذلك فلقد كان القبول من جانب الشعب لزعامته ، هو قبول لتمرده على شرعية التعامل من خلال المؤسسات كمنهج وأسلوب .

ثم إن عبد الناصر وحتى قبل أن تتبلور زعامته ، كان قد واجه انقساما فى الجيش حوله ، ولم يكن لديه لا الزمن ولا القدرة للتعامل مع هذا الانقسام الا بتجاوزات حادة للقانون ، كان الاشتباه وحده مبررا للعزل ، كان الاتهام فحسب مدخلا للادانة .

ثم إن عبد الناصر بعد أن واجه الانقسام فى الجيش ، كان عليه ان يواجه الأرهاب أيضاً ، محاولة لحرق المصانع من جانب اليسار

فى كفر الدوار ، محاولات لاغتياله من جانب اليمين الدينى ، فهل كان له أن يتسلح بالصبر ، ويحتكم الى بطء اجراءات المحاكم العادية ، كمحاولة لمحاصرة حريق بدأت تتسع دوائره .

ثم إن (عبد الناصر) وبعد ذلك مباشرة ، كان عليه أن يقضى على ما كان يسميه دائماً مجتمع النصف فى المائة ، طبقة الاقطاعيين وملاك الأراضى ، وفى هذا الاطار فلقد كان الاحتكام الى قوانين سبق ان وضعوها لتقنين سطوتهم ، كان أمراً لا يجوز ، فكان أن لجأ إلى قوانين جديدة ، والأهم إنه إستعان بإجراءات لا تتوافر معها معايير العدل المثالى .

ولقد كان (عبد الناصر) فى هذا كله يمتطى صهوة جواد أبيض ، جامح وقوى وقادر على أن يشق لنفسه دروباً جديدة ، غير تلك القديمة التى تجاوزها الزمن .

جواد (ناصر) الأبيض ، هو ما يصطلح السياسيون على تسميته بالأغلبية الصامتة ، أو التى كانت صامتة قبل (ناصر) .

ملايين الفلاحين الذين استفادوا بقوانين الاصلاح الزراعى ، ضحايا الاقطاع وعبيد الأرض وعمال التراحيل ، ولقد كان هؤلاء لعبد الناصر هم شرعيته ، وكان عبد الناصر بالنسبة لهم ، هو عدل وان خالف شرعية عانوا منها ، شرعية كانت هى سوط سيد الأرض على ظهورهم بل وحتى ظهور نسائهم ، شرعية تستند الى قوانين ، تتيح لمالك الأرض أن يملك الأرض ومن عليها ، له حق طرد الفلاح وتشريده ، له حق الحصول على عائد جهده ، قوانين كان لا يرى فيها الفلاح المصرى الا ظلما ، هو ظلام امتد منذ أن

فرض محمد على نظام الالتزام لجمع الضرائب بالقــوة ، وفرض السخرة بالقـوة ، الى الاسـتيلاء على الأرض واعادة توزيعـها على الامراء والنبلاء وأفراد الحاشية .

ثم ان عبد الناصر فى بداية أيام حكمه ، كان يملك الغــرب والشرق معاً .

الولايات المتحـدة ، والتى كانت تأمل من خـلال مصر أن ترث النفـوذ التقليدى لانجلترا وفرنسـا فى الشرق الأوســط والعــالم العربى .

الاتحاد السوفيتى ، والذى كان يطمع ، ومن خلال مصر أيضاً ، أن يصل الى المياه الدافئة ، وان يحاول ان يستعيد مجـرد الأمل فى امكانية تحقيق حلم القياصرة ، باقامة امبراطــورية نفــوذ تحمى الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى ، وبين الحلم والأمل ، استطاع عبد الناصر أن يمتد بتأثيره خارج مصر وإلى الأمة العربية .

ولا أحــد ينكر أن الارادة الوطنية المصرية بقيادة جمال عبد الناصر ، قد اسـتطاعت أن تسـهم فى هزيمة العــدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، الا أنه لا أحـد ينكر أيضـا أن الاتحــاد الســوفيتى بانذاره ، والولايات المتحـدة بموقفهـا الرافض والمدين للعـدوان ، كانا وراء منع العــدوان الثلاثى من أن يحقــق أهدافه أولا ، ثم اجبار المعتدين بما فيهم اسرائيل ، على الجلاء من بور سـعيد وكل سـيناء وقطاع غزة ، وذلك فى فترة قصـيرة من الزمن ، هى المدى الزمنى الفارق بين نوفمبر سنة ١٩٥٦ وديسمبر سنة ١٩٥٧ .

كذلك فإن تصفية الوجود الاستعمارى فى المنطقـة ، وإن كان فى

جانب منه نتاج لجهد مشترك من جانب الجماهير العربية المدعومة بقــوة الثورة المصرية ، الا ان التنافس الســوفيتى والأمريكى لاستمالة شعوب المنطقة ، كان قد لعــب دوره بشكل ما ، وبدرجــة ما لتحقيق هذا الهدف .

وهكذا امتد نفوذ ناصر خــارج مصر وخــاصة فى المنطقــة العربية ، كانت انتصاراته هى شعاراته : هى اساطيله وقواته .

كان يكفيه ميكرفون ينقل صوته عبر جبل قيســون القــريب من دمشق ، ليقول عبره ، انزل يا (مرجان) فيسقط (مرجان) رئيس وزراء العراق فى بغداد بعد ساعات .

كان يكفيه ، ان يهــاجم (كميل شــمعون) من اذاعة القــاهرة ، لتقــوم الثورة فى لبنان ، كان كافيا ان يتلاعب باســم (عبد الكريم قاسم) وهو يخاطب الجماهير التى تحتفل به فى ذكرى عيد النصر فى بور سعيد ، فيخاطبه مرة باســم قاســم العــراق ، ويخــاطبه مرة باسم آثم العراق ، لتهــتز بغــداد وكركوك وتندلع فى الموصــل ثورة يقودها (الشواف) ضد (عبد الكريم قاسم) .

ومع ذلك فلم يكن الذى يحــرك الجماهير بلاغة عبد الناصر ، وانما كان الذى يهــزها انجــازاته ، ولم يكن عبد الناصر فى علاقته بالجماهير داخــل مصر وخــارجها فى العــالم العــربى ، علاقة لا تستوعبها المؤسسات ، وانما هى علاقة تتجــاوز المؤســســات . فى مصر لم تســتطع أن توازيه او حتى أن تقترب من تأثيره المباشر على الجماهير ، بل ان العكس كان دائما هو الصــحيح ، كانت شعبيته تتزايد بفشل هذه المؤسسات وانهيارها .

فشلت (هيئة التحرير) فى بداية الثورة ، وبقى عبد الناصر ، فشل (الاتحاد القومى) فى منتصف الستينات وبقى عبد الناصر ، تعثر الاتحاد (الاشتراكى العربى) وبقى عبد الناصر .

وفى العالم العربى ، لم تكن علاقة عبد الناصر بالمؤسسات السياسية فيه علاقة توصيل بينه وبين الجماهير ، وانما كانت علاقات نفور وعداء .

عداء مع (البعث) العراقى والسورى لا يحتاج الى دليل ، كان (البعث) العراقى فى عهد قاسم يحالف الشيوعيين ضد عبد الناصر وصرحه الوحدوى فى دمشق . كان (البعث) السورى حليفاً لكل المتآمرين على الوحدة ، بداية (بمعروف الدواليبى) (ورشاد الكخيا) من حزب الشعب ، الى (خالد بكداش) فى الحزب الشيوعى ، الى (مأمون الكزبرى) (وموفق عصاصة) ، رأس الرمح فى الانقلاب على الوحدة المصرية السورية فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١

بل ان حركة القوميين العرب ناصبته العداء ، وحزب التحرير الاسلامى الاردنى كان من ألد خصومه ، وأكاد أقول أن جبهة التحرير الجزائرية ما تحالفت مع بومدين ضد بن بيلا ، الا لعلاقة الأخير الوثيقة بعبد الناصر .

ومع ذلك ، فلقد كانت صلة عبد الناصر بالجماهير العربية تتجاوز كل هؤلاء .

ما حاجته إذن للمؤسسات فى مصر وخارج مصر . يكفى توازن دولى ، هو قادر بنجاح على توظيفه لصالحه وعلى حساب

امبراطوريات عجوزة ، لم يعد حلفاؤها يرغبون فيها ، ولم يعد اعداؤها يأبهون بها .

ما حاجته للمؤسسات ، وهو قادر فى مصر أن يكون هو المؤسسة الأكثر تأثيراً ، مؤسسة التخاطب المباشر مع الجماهير ، والتى تعد الأيام على موعد لقائه من بداية العام الى نهاية العام ، فى القاهرة فى ٢٣ يوليو ، فى الاسكندرية فى ٢٦ يوليو ، فى بور سعيد فى ٣١ ديسمبر ، بالاضافة الى ما يطرأ من مناسبات واحتفالات .

كانت الجماهير معه ، وكان يقودها على طريق ثورة مشغولة بهدم القديم ، بقدر انشغالها ببناء الجديد .

وإذا كان الهدم لا يحتاج الى تقنين ، فإن البناء الجديد قد يتمرد على التقنين ايضا ، حتى لو كان لوائح وقوانين .

لم يكن معقولا على سبيل المثال أن يتم بناء السد العالى ، بلوائح تنظيم العمل ، التى جرى وضعها فى القرن التاسع عشر .

لم يكن مقبولا أن يقام مجمع الحديد والصلب وفق قوانين بعضها منقول من فرمانات ، بل وبعضها فرمانات أصدرها الباب العالى قبل أكثر من قرن من الزمان .

لم يكن معقولا ان تصدر قوانين يوليو الاشتراكية ، وهى قوانين تمصير وتأميم ومصادرة وفرض حراسات فى اطار اجراءات المحاكم المدنية على سبيل المثال .

ويقول السادات . .

كانت تلك ظروف عبد الناصر ، بل ان تلك كانت هى الظروف

التى فرضت على عبد الناصر اسلوبه فى القيادة والحكم ، وليس فى هذا كله حكم عليه بل هو حكم له ، ولو كان قد تمرد على ظـروفه لما نجح ، ولو كان خالف ذلك المسار لما أنجز وفى كل المجالات .

إلا أن الظروف التى تفرض اسلوب القيادة ، هى الظروف التى تفرض فى حالة تغيرها ، على نفس القائد الأسلوب البديل .

وبالنسبة لعبد الناصر ، فلقد حدث هذا على مراحل وبالتدرج :

مرحلة ما بعد الانفصال :

ولقـد كان التفسـير الأقرب وان لم يكن الأسـهل لمبرراته ، قوانين يوليو الاشـتراكية والتى اعلنت فى القـاهرة لتنطبق على القاهرة ودمشق .

ولذلك فلقد كانت خـطابات عبد الناصر والتى تلت الانفصـال مباشرة ، تهاجم من أسماهم الشركة الخماسـية ، وهى تجمع لكبار التجـار فى الشـام ، والذى كان عبد الناصر يتهـمها بأنهـا وراء انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ، كرد فعل لقـوانين يوليو الاشتراكية وماواكبها من مصـادرة وتأميم ، وبالتالى تحجـم نشاط هذه الشركة . وللحق فإن تجـار الشـام أغلب تجـار الشـام وليس الشركة الخماسـية وحـدها ، كانوا قد ضـاقوا بتدفق اعداد كبيرة من صـغار التجـار ، أو على الأصـح الباعة الجـائلين المصريين ، والذين انتشروا فى شوارع دمشق يسوقون بعض السلع المصرية ، وذلك فى الوقت الذى كاد فيه سـوق الموسكى الكبير فى القاهرة يكاد يكون صورة منسوخة من سوق الحميدية فى دمشـق ،

بعد ان غزاه السوريون بكثافة بشرية ونوعية لا تقارن بالنشاطات المحدودة للباعة الجائلين المصريين فى دمشق ، ومع ذلك فان اقتران الانفصال بقرارات التأميم ، كان قد اثار فى القاهرة مطامع ومخاوف . فلقد انتشرت شائعات هى أقرب الى التمنيات البائسة ، أن تجارا فى الاسكندرية بالاضافة الى ملوك الميناء وذنابه ، يتأهبون لفصل الاسكندرية عن ما تبقى من الجمهورية العربية المتحدة ، وبصرف النظر عن مدى العبث فى هذه الشائعات فضلا عن ترديدها ، إلا أنها عكست مطامع واثارت مخاوف من اضطرابات يحركها رأس المال المذعور .

وفى اطار هذه المخاوف ، يعلن (عبد الناصر) فى خطاب جماهيرى ، بأن اليمين له من الحصون فى مصر ما لا تملكه الثورة ، وإن الرجعية لها من الفاعلية ما لا يملكه التنظيم السياسى الوحيد ، ومع هذا وفى اطاره ، جرى ولو على مهل تقنين ما جمع من اجراءات المصادرة ، وجرى فى شىء من الرفق النسبى التعامل مع موضوع الحراسات .

مرحلة حرب اليمن :

ولقد كانت الجبهة المفتوحة للصراع فى هذه الفترة هى جبهة جماعة المشير ، المجموعة الضيقة المحيطة به ، والمجموعة الأوسع المحيطة بهم ، ثم مجموعات هوامش الهوامش ، ومحاسيب المحاسيب ، وهؤلاء وفى ظل التمويل والتمويل المضاد للقبائل

الجمهورية والملكية فى اليمن ، بل والأصح ان يقال التمويل والتمويل المضاد للقبائل التى تتبادل مواقعها فى اليمن ، مرة موالاة للجمهوريين ، ومرة موالاة للملكيين ، تنقلا بين الموائد ، والتهاما لكل ما هو مطروح فوق كل الموائد ، فى اطار هذه الحركة النشطة ، نظمت مجموعة المشير حركة تجارية اكثر نشاطاً ، بين ميناء الحديدة وميناء السويس ، حركة تجارية كان ميناء عدن الحر يومها مصدر بضائعها وكانت السفن الناقلة للجنود من مصر لليمن والتى تعود فارغة فى أغلب الأحوال ، وسيلة النقل المتاح لها ، بالاضافة الى ما يمكن ان يتسرب من أموال كفائض بين من يدفع ومن يستلم ، ولقد كانت تلك الأموال رصيد بداية على الأقل لتلك التجارة النشطة . .

الأهم أن هذه التجارة لم تكن تلتزم بأى قانون . لا قوانين الاستيراد ، ولا قوانين الجمارك .

وفى الوقت الذى كانت فيه المصانع الحربية فى مصر نشطة فى انتاج الثلاجات ومواقد الغاز ، كانت بدائله المستوردة تباع فى السوق المصرى ، بأسعار لا تنافس ، ومع اكتشاف الخلل ، بدأت حركة خجولة فى محاولة علاجه .

جرى القبض على مجموعة (عبد الحكيم عامر) ، ومن بينهم مدير مكتبه ، إلا أن المشير وبقوة السلاح قام بالافراج عنهم .

جرى تنشيط لتطبيق قوانين الاستيراد والتصدير وتحصيل الرسوم الجمركية ، الا أن ذلك النشاط سرعان ما انحسر عندما

مس الكبار ، وبواسطة جمال عبد الناصر شخصيا ، فعندما وصلت طائرة الشحن العسكرية الضخمة الى مطار القاهرة قادمة من موسكو ، فان الشاحنات العسكرية قرب مخازنها ، قامت على الفور بتفريغ محتوياتها ثم انطلقت مباشرة خارج بوابة المطار ، دون اجراءات تقييم جمركية لمحتوياتها ، وبالطبع دون تحصيل أية رسوم جمركية على هذه المحتويات .

وعلم عبد الناصر بالواقعة ، وأمر بتحقيق فورى فيها .

أسفر التحقيق على ان شحنة الطائرة بأكملها تخص (على صبرى) ، سكرتير الامانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى ، والذى كان موفدا الى موسكو فى مهمة رسمية ، ورغم ان الرسوم قد تم تحصيلها الا ان العقاب القانونى لم يطل (على صبرى) ورغم ارادة عبد الناصر ، لماذا . . ؟ لأن السوفيت تدخلوا ، ولقد يمكن ان يقال ان تلك الوقائع كانت اولى المحاولات لمقاومة ما اصطلح على تسميتهم بمراكز القوى ، كما كان بداية الاحتكاك الخطر بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر .

مرحلة ما بعد يونيو ١٩٦٧

وهى مرحلة تتميز بسمات أساسية ليس فى فكر عبد الناصر . وانما فيما راه ضروريا من اعادة النظر فى اسلوب القيادة هى :

* إنه فى حالة الهجوم الشامل على الوطن ، فان مسئولية الدفاع عنه هى مسئولية كل المواطنين ، وحتى يشارك كل المواطنين فى واجب الدفاع فان المطلوب ان يتساوى كل

المواطنين فى الواجبات والحقوق ، ولتحقيق هذا الهدف ، فليس هناك وسيلة الا الاحتكام الى سيادة القانون .

* إنه فى مرحلة الثورة الاجتماعية ، فلقد يكون مغفورا فضلا على انه مبرر ، ان يجرى تصنيف للفئات الاجتماعية بمعايير اقتصادية ، الا انه فى مرحلة تحرير التراب الوطنى ، فلا مجال لتصنيف طبقى ولا مجال لتمييز طبقى ، وبالتالى فلا مجال لصراع طبقى ، حيث العدو يستهدف ارض الجميع وهى أغلى ما يملكون .

* إنه وفى نفس المرحلة ، فلا مناص من استخلاص الدروس المستفادة من ناتج التجربة والتى اثبتت ان مراكز القوى هى التى تنضم وقت الرخاء ، تهرب ساعات الحرج ، بل انها هى الأصل فى تهيئة مناخ الهزيمة .

ولهذا فإن عبد الناصر خاض وعلى الفور معركة تصفية مراكز القوى ، ولقد كان طبيعيا ان يبدأ بالمجموعات المتحكمة فى الجيش ، فكانت محاكمة المسئولين عن الهزيمة العسكرية ، وكانت تصفية مجموعات المشير ، ثم كانت النهاية المأسوية (لعبد الحكيم عامر) ، والذى اعتقد ان (عبد الناصر) عاش محنتها ، ومات وهو يحمل معه حتى القبر مرارتها ، فلقد كان (عامر) ، رغم كل الظروف الأقرب الى نفسه ، كان يعرف انه ضحية طيبته ، ضحية شهامته ، ضحية من كانوا حوله وان كان افضل منهم جميعا .

ولقد وظف (عبد الناصر) بعد ذلك جهده لاعادة بناء القوات

المسلحة ، الا انه وبعد شهور قليلة ، اكتشف ان جذورا جديدة ووجوها جديدة بدأت تنبت على سطح الحياة السياسية هذه المرة ، مشكلة مراكز للنفوذ والقوة خارج المؤسسات .

ولقد أراد (جمال) رحمه الله ، ألا تكون معركته مع هؤلاء معركة خنادق ، أرادها ان تكون مكشوفة امام الشعب كله ، فكان بيان ٣٠ مارس .

ما هو الجوهر فى بيان ٣٠ مارس . . . ؟

هو كل ما حاولت تطبيقه وقاومه هؤلاء . . قاوموه فى حياة عبد الناصر ، والذى انشغل بعد اصدار البيان باعادة بناء الجيش كخطوة ضرورية لازالة آثار العدوان ، الا انه كان يتحين فسحة من الزمن يحاسب فيها ويعاقب ، ويضع بيانه العظيم موضع التنفيذ ، الا ان ظروف اعادة بناء الجيش لم تعطه الفرصة ،كما ان التشابك الدولى لم يعطه الوقت ،كما ان الأمة العربية بتداخل تيارات المد والجزر فيها ، كانت تدفعه بعيدا حتى عما يراه ضروريا .

وهكذا رحل بعد ساعات من قمة عربية لأمة عربية ، توج عطاءه لها بحياته . .

ما حاولته هو ما كان (ناصر) مصرا عليه . .

* ان تكون المؤسسات فوق كل فرد وقبل كل فرد ، فالسلطة بها ، والسلطة لها ، والسلطة فيها .

* انه لا تهمة بغير قانون ، ولا عقاب بغير نص ، ولا حجر

على الانسان المصرى ، حريته وماله .

※ انه لا طريق لنصر ننشده ، ما لم نحارب الخوف والقهر ونشيع عدل الاطمئنان فى كل النفوس .

※ ان لا وصاية على الشعب فهو قادر ولا حجر على الجماهير ، فهى الأوعى بمصالحها .

ويفيض السادات فى تفاصيل الوقائع منذ الولاية فى أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى الأمس ، القريب الرابع عشر من مايو سنة ١٩٧١ .

ثم يقول ..

اننى أعلم يا (جعفر) انك اعدت احد الوزراء السودانيين الى الخرطوم من القاهرة ، لأنه وفى اثناء الاعداد لتشييع جنازة جمال كان قد اتصل به واحد ممن قدموا استقالاتهم بالأمس ، والذى أغراه بأن يضغط عليك لتقف الى جانبهم فيما كانوا يحاولون وانك لم تكتف بالرفض ، وانما أعدته على الفور الى الخرطوم ، ودون ان يشارك فى تشييع الجنازة .

وأقول ..

هذا صحيح

ويسألنى أنور ..

هل كنت فى كل ما ذكرته لك على غير طريق عبد الناصر ، اعتقد اننى على طريقه ولكن بأسلوب يختلف ، ذلك ان ظروفى عن ظروفه تختلف .

وأسأله . .

ولكن كيف ستجد البديل السريع لكل هؤلاء الذين استقالوا دفعة واحدة ؟

ويطلق ضحكته المطمئنة ويقول . .

انها مصر يا (جعفر) ، هل ترى هذا الشباك المواجه لنا ، اننى لو اطللت عبرة الى الشارع لعدة دقائق ، لأستطعت أن أجد من بين المارة بديلا لهؤلاء ومن مختلف التخصصات .

ونفترق لساعات ، لأعود اليه ، حيث نذهب معا ، لحضور حفل أداء القسم للوزراء الجدد .



الفصل الثالث

السادات .. موعد مع التحدى

- الأمريكيون الثلاثة فى موكب الوداع
- قصة مع امريكا : يرويها السادات
- اسرائيل الفكرة والدولة
- من الحروب الصليبية إلى عصر الوفاق
- السوفيت فى مصر
- من صفقة الاسلحة التشيكية الى مابعد العبور
- الانذار النووى فى حرب اكتوبر وتدويل الصراع
- النغمة الصحيحة : حوار مع كل الأطراف

فور وصولى مطار القاهرة ، سألت احد المرافقين أن يسأل عما اذا كان ممكنا ، أن ألقى نظرة على منصة العرض العسكرى ، حيث استشهد السادات .

تداخلت اجراءات الأمن مع مراسم البروتوكول لتشكل عقبة امام امكانية تحقيق هذه الرغبة ومع ذلك فلقد كنت طوال الوقت تواقا لإلقاء نظرة حيث وقف يحيى جنوده ، وحيث سقط بين جنوده .

شاهدت عدة أشرطة تلفزيونية تصور الحادث ، ومع غياب التفاصيل عن بعضها ، وتوافر التفاصيل فى بعضها الآخر ، فلقد بقيت أتساءل حول الفرص التى توافرت لحمايته ، والاجراءات التى اتخذت للتصدى لمهاجميه .

صورة الحركة التلفزيونية قد تكون مضلله ، لا تعكس الفارق الزمنى ، بين التأهب لاطلاق النار واصابة الهدف .

وسؤالى الملح والدائم ، كان ومنذ أن سمعت الخبر المحنة ، ألم يكن متاحا لواحد من المئات الذين تجمعوا حوله ، أن يتحرك ليحميه ، أو يتحرك ليفتديه .

لماذا لم تتوافر خطط وخطط بديلة للحماية ، خاصة انه كان مطلوبا من جانب اطراف عربية واطراف دولية ، بل وأطراف محلية أيضا خاصة بعد قراراته فى ٥ سبتمبر ، ولقد كان ظنى اننى استطيع ان اجيب على تساؤلات نفسى ، لو ألقيت نظرة على المكان الذى شهد غروب أيامه .

الغريب ان هذا الخاطر الملح تلاشى كأنه لم يخطر على البال أبداً ، وانا وسط المشيعين ننتظر وصول جثمانه ، ثم وأنا أتابع موكبه الجليل المسافر الى رحلة الأبد ، بل وأنا أعبر من أمام المنصة ، نفس المنصة التي ألححت فى القاء نظرة عليها ، بل وأنا أصعد درجاتها لأقف فى ساحتها الداخلية مع أسرته أتلقى العزاء فيه .

يتوافد المعزون ، كل الوجوه أعبرها الا ثلاثة .

- **ريتشارد نيكسون .**
- **جيرالد فورد .**
- **جيمي كارتر .**

تنتهى مراسم العزاء ، وبعدها مراسم الدفن ، واعود الى الفندق حيث اقيم ، وصورة الثلاثة لا تفارقنى ، وجوههم المرسومة بالأسى ، عيونهم المبللة بالدموع ، تهدج الصوت الذى يكاد يصل الى حد النحيب ، وكل منهم يمد يده يصافح الزوجة المحزونة ، والبنات اليتامى ، والفتى الشاب الذى خصه الراحل بكتاب يحدثه فيه عن عمه جمال .

صورة الثلاثة .. لماذا الثلاثة .. ؟

تعود بى الأيام ، الى تلك الأيام من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كانت الخرطوم ككل عاصمة عربية ، تتأرجح مع مدار ساعات النهار والليل بأخبار الجبهة ، اخبار تثير الأمل ، وأخرى تثير الفزع ، خاصة تلك التى تلت اليوم السادس عشر من اكتوبر ، تصريحات لجولدا مائيير تقول فيها ان دباباتها تقاتل الآن فى دلتا النيل ، وأخرى متحفظة مصدرها القاهرة ، تتحدث عن ثغره محدودة فى منطقة الدفرسوار ، وفجأة يعلن السادات قبوله بوقف اطلاق النار ، فى الوقت الذى تعلن فيه حكومة (ريتشارد نيكسون) التأهب النووى لحماية اسرائيل .

تمتنع اسرائيل عن تنفيذ قرار محلس الأمن بوقف اطلاق النار ، فى الوقت الذى يعلن فيه السادات ، انه الآن يحارب أمريكا ، وانه بكل الصراحة لا يستطيع ان يواصل مثل هذه الحرب .

جسر جوى يتصل عبر المحيط والبحر ليصل واشنطون بتل أبيب ، بل واشنطون بالعريش ، حيث تفرغ الطائرات العملاقة شحناتها من الدبابات الضخمة ، والتى تتحرك على الفور لتشارك فى القتال . قنابل عنقودية ، قنابل تلفزيونية ، مع آخر ما توصلت اليه ترسانة عظمى ، لدولة عظمى من أدوات الدمار .

تتشابك القوات المصرية والاسرائيلية فى منطقة الثغرة ، تتداخل عند الكيلو ١٠١ ، تصمد السويس امام محاولات جيش اسرائيل

لاحتلالها ، يكتفى الاتحاد السوفيتى بتوجيه انذاراته اللفظية ، بينما اسرائيل بواسطة الولايات المتحدة ، تستكمل استعواض كل الأسلحة والذخائر التى فقدتها خلال أيام الحرب العشرة .

انحياز أمريكى شامل لاسرائيل ، وضد مصر السادات ، السادات صاحب قرار الحرب ، والذى خطط وتابع العبور العظيم ، والذى اسقط نظرية الأمن الاسرائيلى التى تهاوت مع طلقات المدافع الأولى ، فى تمام الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر ، ليس صحيحا ان السادات لا يستطيع ان يواجه أمريكا ، بل هو واجه أمريكا بالفعل بقرار الحرب ، وواجه أمريكا حينما استطاع ان يفرض عليها مواجهة أصدقائها فى المنطقة ، والذين استخدموا ضد أمريكا وحلفائها سلاح النفط بفاعلية وكفاءة وباستثناء ليبيا التى«لا تصادق أمريكا»،والتى استمر بترولها يتدفق خلال ايام حرب اكتوبر وبعدها ، فانه يمكن أن يقال ، ان البترول العربى لعب دورا حاسما فى المعركة . ومع ذلك فلقد تمكن السادات بعد شهور من توقف اطلاق النار ؛ أن يستضيف (ريتشارد نيكسون) فى القاهرة ، وأن ينظم له استقبالات شعبية بغير نظير ، ثم انه استطاع بعد سقوط (نيكسون) المأساوى بعد فضيحة « وترجيت » ، ان يحافظ على جسور الصداقة مع (جيرالد فورد) ، ثم بعد ذلك مع (جيمى كارتر) ، والذى انفرد دون سائر رؤساء الولايات المتحدة ، بل وسائر الرؤساء فى كل دول العالم ، بما طبع كل تاريخه من انه الرئيس الأمريكى الذى اعطى لقضية خارجية كل وقته وفى مكان

واحد، لمدة ثلاثة عشر يوما بغير انقطاع.

وهكذا ارتبط كامب دافيد المكان والمعاهدة باسم كارتر وارتبط بها، فلا هو أنجز طوال ولايته ولا هو تفرغ رغم خطورة الازمات التي واجهها ومنها أزمة الرهائن في ايران لسواها.

كيف استطاع السادات ان يقنعه، بل كيف استطاع السادات ان يوظفه، بشهادة الجميع كان بيجن عازفاً عن الاتفاق لا يتمنى له الفشل فحسب، بل كان يعمل على ان يلحق به الفشل، بشهادة شاهد من أهله، أرهقه عناد بيجن قبل الاتفاق، وأرهقه تعنته بعد توقيع الاتفاق، وهكذا استقال (موشى دايان) من منصبه، ليخوض الانتخابات معارضا لسياسة (مناحيم بيجين).

ثم غير هؤلاء الرؤساء الأمريكيين الثلاثة، كان الرئيس الحالى (رونالد ريغان)، والذى كان قد استقبل السادات فى البيت الأبيض فى اغسطس، ثم جاء عليه صباح فى اكتوبر فى البيت الأبيض أيضا، علم فيه ان السادات اصيب خلال العرض العسكرى، ليعلم بعد ذلك انه مات، فيعقد اجتماعا لمجلس الأمن القومى لاستخلاص دلالات الحدث ومضاعفاته المنتظرة والمتوقعة، ثم يشهد البيت الأبيض بعد ذلك لقاء تاريخيا بغير سوابق، يضم اربعة من رؤساء الولايات المتحدة، رئيس فى السلطة هو (رونالد ريغان)، وثلاثة سابقون، هم انفسهم نفس الثلاثة الذين شاركوا فى تشييع السادات. (نيكسون، فورد، وجيمى كارتر).

ما الذى فعله السادات لهم، بل ما الذى فعله السادات بهم وبالولايات المتحدة، والذى كانت سياستها ومنذ تفجرت أزمة

الشرق الأوسط فى أواخر الأربعينات ، إنحيازا كاملا لاسرائيل وعداء كاملا لمصر ، باستثناء أسابيع قليلة من ولاية (داويت ايزنهاور) ، حيث كانت السياسة الأمريكية أقرب الى مصر خلال ازمة السويس ، الا ان تلك السياسة سرعان ما عبرت موقعها المؤقت ، لتستقر فى مدارها الثابت ، انحيازا كاملاً لاسرائيل وعداء سافراً لمصر .

ما الذى فعله السادات . . ؟

يقول السادات . .

ولكن متى قال . . ؟ وكأن حديثه قد مضت عليه سنوات رغم انه قريب لم تمر عليه سوى بضعة شهور ، هى تلك الفترة الزمنية الفاصلة ، بين يوليو حيث كان حديثنا ، الى اكتوبر ، وانا استعيد حديثه بعد ان شاركت فى مراسم وداعه الأخير .

* * *

استراحة المعمورة مرة اخرى . .

مساء يوم من أيام شهر رمضان الكريم ، والذى أحرص ان أقضى جانباً منه فى الاسكندرية والذى يعرف السادات محبتى لها ، ولقد كان احرص هذه المرة ان نلتقى فى كل يوم تقريبا على مائدة الافطار .

نلتقى قبل موعد الافطار بقليل لقاء العائلة الواحدة ، ينطلق صوت الأذان ، يأخذ جرعة قليلة من الماء ، نقوم لصلاة المغرب ، بعدها يكتفى بالحساء الساخن ، ثم يشعل الغليون ، تمر عدة ساعات وبعدها نتناول العشاء .

حسبته فى البداية يجاملنى ، ذلك ان هذه هى العادة المتبعة فى السودان ، السوائل بعد الافطار (شراب الموسية) ثم العشاء فيما بعد صلاة العشاء ، الا اننى عرفت ان تلك هى عاداته ، ربما لأن الأصل واحد ، ذلك ان عروقه تحمل دماء سودانية أصيلة .

فى ذلك اليوم ، بعد الصلاة والحساء الساخن ومع دخان غليونه ، استعرض معى ما أسماه ، قصتى وأمريكا ، وتابعت حديثه ، نبراته العالية فى بعض المقاطع كانت تلفت انتباه اسرتى واسرته فى مجلسهم البعيد ، فيقتربون مستفسرين ليعودوا الى ما كانوا فيه ، كان انفعاله رحمه الله بالحديث يرتبط دائما بانفعاله بالحدث فى سياقه ، كأنه يعيشه مرة اخرى .

يعلو صوته بالغضب ، يتلون بالهدوء ، يستقيم مع استقامة الاحداث مع المنطق .

قصته وأمريكا . .

يقول السادات . .

تلك حكاية طويلة يا (جعفر) ، أرى أنك لمستها فى كتاب صدر عنك لكاتب مصرى . قد يكون (ممدوح رضا) لا . . (عادل رضا) . . هل هو شقيقه . . ؟ ثم يسترسل . .

تماما كما نقل عنك فى ذلك الكتاب ، محاولة لتحييد أمريكا ، تعبير سبقك وسبقنى اليه صديقنا (هيكل) ، أعرف أنك لم تكن راضيا عن بعض كتاباته عن السودان ، الحق اقوله لك ، فرغم

كل ما يقال عنه ، وما أقوله عنه أحيانا بانفعال اللحظة ، فهو صديق كريم .

تحمل مع عبد الناصر وعنه مسئولية تقديم فكرة وتأصيل تجربته ، ثم أنه تحمل معى مخاطر انتقال السلطة بعد رحيل عب الناصر ، ثم بعد ذلك خاض معى الصراع المرير مع مراكز القوى ، والذين كانوا محسوبين على عبد الناصر ، أكثر مما هم محسوبون له ، ولقد ظنوا ان (**هيكل**) من الممكن ان يكون بالون اختبار قبل المواجهة الحاسمة معى ، هاجموا كتاباته ، اتهموه بأنه من دعاة الهزيمة ، رغم ان بعض مقالاته كان لها مقاصد غير تلك التى تحملها السطور ، منها مقال تحت عنوان (تحية للرجال) ، وفيه كان يتحدث عن مخاطر عبور قناة السويس ، كان القصد من المقال ، ايهام اسرائيل وحلفاء اسرائيل ، ان مصر ليست فقط غير راغبة فى خوض معركة ، وانما هى ليست قادرة أيضاً ، وكان ذلك يقع فى اطار تخطيطى لتحقيق مفاجأة استراتيچية اعرف ان لها اهميتها فى كل المعارك .

ولقد وجدت مراكز القوى فى هذا المقال فرصة ، ليس فقط للهجوم على هيكل لتصفية حسابات قديمة من أيام جمال ، وانما لدفعى إما لمواجهة معهم لم استعد لها أو الاستسلام والتسليم لما يريدون . . ولذلك فلم يكتفوا بالرد على (هيكل) فى الصحف ، بل طالبوا بمحاكمته محاكمة سياسية ، ولقد كان من الطبيعى ان ادافع عن (هيكل) ، ودافعت عنه ، وأشركته معى فى كل الخطوات التى انتهت بالقضاء على مراكز القوى .

المهم ان الخلاف بيني وبين (هيكل) هو خلاف فى زاوية الرؤية ، فهو فى منهجه ككاتب يطرح القضايا بتركيز على الجوانب الاستراتيچية منها ، وأنا كسياسي وكعسكرى قبل ذلك ، لا أهمل الاستراتيچيات ، ولكنى اتمهل فى التعامل العلنى معها ، حتى لا أفقد فى وقت مبكر فاعلية الوسائل المرحلية التى أعمل للوصول لها .

ذلك هو جوهر الخلاف بيني وبين (هيكل) ، وهو الخلاف الأزلى بين من يكتب متحررا من مسئولية تنفيذ افكاره ، وبين من يتحمل مسئولية العمل لتنفيذ خططه .

أعود بك يا (جعفر) الى ما كنا فيه ، تحييد أمريكا . . القصة طويلة .

ربما تكون سابقة على قيام اسرائيل كدولة ، هناك تأثير المال اليهودى فى الفكر الأوروبى ، وهناك تأثير الفكر اليهودى فى الفكر الأوروبى ، لا تنس ان (كارل ماركس) كان يهوديا ، (والبرت انشتاين) كذلك ، (وفرويد) (بتاع) علم النفس .

ثم هناك رواسب تاريخية أقدم ، تعود الى الحروب الصليبية ، والتى كانت بغض النظر عن مظهرها الدينى ، صدام حضارات وثأرا قديما ، امتدادات لمحاكم التفتيش التى استأصلت العرب المسلمين من الأندلس .

ثم هناك ما هو احدث ، فلقد كان العرب محسوبين على دولة الخلافة العثمانية ، والتى كانت طرفا فى كل الصراعات والحروب

فى اوروبا ، وحتى مع بداية انحلال الدولة العثمانية ، فلقد كان الباب العالى فى بعض الأحيان طرفا فى مساومات مع اليهود حول فلسطين ، كما أن بعضا من العرب المتطلعين للتحرر من القهر التركى ، قبلوا ان يدخلوا كطرف مساوم حول نفس القضية .

ثم ما حدث بعد ذلك من تفكك الامبراطورية العثمانية ، وحلول الاستعمار البريطانى والفرنسى محلها فى المنطقة العربية ، وهو الاستعمار الذى وصفه (هيكل) فى احد مقالاته ، بأنه وهو الذى لا يملك ، قد اعطى لمن لا يستحق ، اشارة لا تنقصها البلاغة لوعد (بلفور) .

ثم نأتى الى الحرب العالمية الثانية ، والتى كانت الدعاية من جانب كلا الطرفين المتحاربين من أمضى الأسلحة التى استخدمها ، (جوبلز) فى الجانب الألمانى ، وجهاز متخصص ومتنوع فى جانب الحلفاء .

وبينما كان (جوبلز) يتفنن فى الدعاية التى تعتمد على اثارة الفزع من آلة الحرب الألمانية ، كان الحلفاء يعتمدون على مفاهيم مطروحة ومعلنة فى الفلسفة النازية ، ومنها ، ان اليهود يأتون فى تسلسل المخلوقات بعد القرود مباشرة ، ويأتى العرب قبل القرود والزنوج بدرجة .

كان الحلفاء يعمدون الى طرح هذه المفاهيم احيانا بغير تعليق ، مدركين ان تأثيرها المباشر سيمارس فعاليته دون تدخل من جانبهم ، وكانوا يطرحونها مضخمة فى بعض الأحيان ليحققوا

بها التأثير المطلوب وفى أعلى درجـاته ، ومن بين هذه القضـايا ، قضية اليهود ، والتى تعززت بممارسات غير انسـانية من جـانب النازى ، سواء بالنسـبة لليهـود الألمان أو غير الألمان ، فى الدول الأوروبية التى سقطت تحت سيطرة النازية .

القتل الجماعى ، استئصال أسر بأكملهـا ، حـرق المئات فى الأفران ، الاعدام فى غرف الغاز ، ولقد كان من الطبيعى ان يثير الفعل وتضخيم الفعل الى جانب الاشمئزاز من وحشـية النازية ، العطف على اليهود (المضطهدين) بسبب عقيدتهم الدينية .

ولهـذه الأسـباب مجتمعـة ، فلقـد كان المناخ الأوروبى عامة والأمريكى على وجه الخصوص مهيأ لتعاطف مع فكرة اقامةوطـن قومى لليهود فى فلسطين ، ومع ذلك فلقد كانت تلك مجرد مقدمات لبداية القضية .

البداية الحقيقية بدأت قبل الحـرب العـربية الاسرائيلية الأولى سنة ١٩٤٨ ، قبل الحرب كانت القضية المطروحة قضيتين :

*** قضية وطن قومى لليهود فى فلسطين .**

*** وقضية وطن قومى للفلسطينين فى فلسطين أيضاً .**

ورفض العــرب وتقبلوا الاحتكام الى السـلاح ، ووقف الرأى العام العالمى يتابع مشاهدها .

سـبع دول عربية بسـبع قيادات ، بعضـها قيادات اجنبية ، ضـد ما أسماه العرب انفسهم مجرد العصابات اليهودية ، ولقـد كان هذا

مدخلا جديدا للعطف على اليهود من جانب الرأى العام الأوروبى والأمريكى .

ثم نتائج الحرب . .

ولم تكن أخطر نتائجها الهزيمة العسكرية للعرب ، الأخطر كان الهزيمة العربية لنفسها وعلى مشهد من العالم .

* حديث عن اسلحة فاسدة فى جيش مصر ، وأسلحة كانت ترتد من صفوفه الى صفوفه لتقتل المئات من أفراده .

* حديث عن خيانات عربية ، ابتداء من الانسحاب بالتواطؤ من (اللد والرملة) ، نهاية بعبارة شهيرة تقول (ماكو أوامر) ، كناية عن الاستسلام بغير قتال ،لأن أمر القتال لم يكن قد وصل بعد من بغداد

* تراجع عربى عن فكرة الوطن الفلسطينى . . فإذا (غزة) قطاع تابع للادارة المصرية ، واذا بالضفة الغربية ومدينة (القدس) ، قد تحولت الى جزء لا يتجزأ من المملكة الأردنية الهاشمية .

ولقد كان ذلك كله مدخلا لمزيد من العطف والتعاطف مع اليهود ودولتهم الوليدة اسرائيل . ثم اذا بهذا التعاطف يتحول وبسرعة الى اعجاب وانبهار ، والدولة الوليدة لا تنمو فحسب وسط بحر الكراهية العربى ، وانما تزدهر كذلك .

نماذج للعمل الجماعى . والمزارع الجماعية ، وقد أسكرت هذه الصورة دول أوروبا الشرقية ، كنموذج ـ للاشتراكية فى التطبيق ، بل وحتى الشيوعيون الذين لم يصلوا هم بعد اليها . .

نماذج للصناعات المتقدمة ، بما فى ذلك قطع الماس والأدوات

الدقيقة والاستخدام الفعال لتكنولوچيا العصر ، وقد أضفت هذه الصورة بريق حضارة لا يراها العالم بين العرب (المتخلفين) ، والذين ما زالوا يعتمدون على الحيوان فى زراعتهم ، وعلى الوسائل البدائية فى صناعتهم .

وهكذا يرى الشرق الأوروبى فى اسرائيل نموذجاً يتطلع اليه ، وهكذا يرى الغرب الأوروبى ايضا فى اسرائيل ، نموذجاً نقل عنه .

ثم انه وبعد ان صمتت المدافع ، فلقد كان العرب يواصلون حرب الكلمات ، خطب رنانة ، أناشيد حماسية ، شعارات براقة ، وكلها تتحدث عن الثأر ، واستعادة الأرض ، وطرد المعتدين .

وهكذا وجد اليهود مدخلا جديداً للعطف الأوروبى والأمريكى عليهم ، ومن ثم الدعم الأوروبى والأمريكى لهم .

وفى سنوات الكمون من مارس سنة ١٩٤٩ يوم وقعت اتفاقيات الهدنة فى (رودس) الى الغارة الاسرائيلية على (الصابحة) فى قطاع غزة فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، لم يكن العالم العربى مستعدا الا للحديث عن القضية والوطن السليب ، لا تنسيق ولا تشاور ، لا خطة للعمل على المدى القريب او البعيد .

وتأتى الغارة الاسرائيلية كتنبيه مؤلم للقيادة المصرية الجديدة ، بأن الخطر الاسرائيلى ليس بعيدا عنها كما كانت تتصور ، فتسارع بطلب السلاح .

تطلبه من الولايات المتحدة ، والتى تطلب أن تقدمه بشروط

امريكية ، أهمهـا اعتراف مصر بالأمر الواقع والذى يتمثل فى وجود اسرائيل ، وترفض مصر ، وتعتبر الولايات المتحدة ومعها الرأى العام الأمريكى ، ان فى ثنايا الرفض تعنتا ونوايا عدوانية تجاه دولة صغيرة .

تطلبه من الاتحاد السوفيتى ، فيقبل الطلب تقريبا بغير شروط .

ومنذ اعلان صفقة الاسلحة التشيكية اسما ، السوفيتية فعلا فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ ، تخرج قضية اسرائيل من مجال العطف الأوروبى والأمريكى ، الى نطاق الأمن الأوروبى والأمريكى . . لماذا . . ؟

يقول السادات . .

* لأن ذلك كان يعنى ان السلاح السوفيتى سيحتاج الى قطع غيار ، ثم احلال للجديد بدل القديم المستهلك ، ولذلك فإن الاتحاد السوفيتى فى مصر لن يكون تاجرا عابرا ، بل هو مورد مستديم .

* لأن السلاح السوفيتى ، يحتاج الى خبراء يرافقونه ، من محطة الشحن الى موقع التفريغ ، ثم هم بعد الرحلة الطويلة من السهول الباردة الى المياه الدافئة ، سيحتاجون لإقامة قد تطول للاستجمام من عناء السفر ، ثم فترة أطول للتعريف بالسلاح . والمساعدة فى التدريب عليه .

* ثم ان ساحة التدريب لن تكون بالضرورة حيث وصل السلاح ، وانما هى أيضاً متاحة حيث مصدر السلاح ، وخاصة بالنسبة للقيادات العسكرية من الضباط .

* إن (موسكو) ليست (لندن) وليست (باريس) ، وان قباب

(الكريميلين) رغم انعكاس وهج الثلوج عليهــا ، قد لا تشــغل الوافدين عن التقـاط الفكر الســائد فيهــا ، اما بالاقتناع او حتى بالتلقين ، وهذا يعنى ان العائدين بعد عودتهم ، لن يعـودوا بالخبرة وحدها ، وانما معها افكار (ماركس) (ولينين) .

* إن فى ذلك أكثر من نذير ، بأن الروس قادمون الى تلك المنطقة ، وفى هذا ما يفـوق الازعاج بالنســبة لما تبقــى من نفــوذ للبريطانيين والفرنسيين فيهـا ، وهو أيضـا مقـدمات للخــطر على الأمريكيين بطموحـاتهم لوراثة المنطقـة ، والأهم على مصــالحهم البترولية الحيوية فيها .

ويتلفت هؤلاء وهؤلاء يبحثون عن حصــن الأمان ، فلا يجـدونه الا فى اسرائيل .

وهكذا تتكامل المعادلة . .

العطف والتعـاطف مع اسرائيل بأبعـاده التاريخية القـديمة والحديثة .

ثم الاعجـاب والانبهـار باسرائيل ، بمظاهر التقـدم داخلهـا ، بالاضافة الى التثبت باسرائيل ، لتكون موقعا متقدما يتحصنون فيه ضــد الاخــطار الوافدة على من حــولها ، حيث المصــالح والثروات .

ثم يقول السادات . .

وتتداعى الاحداث وتتوالى من الخمسينات الى الستينات .

تُدعم اسرائيل بغــيرها ، وكأن الدعم لحســاب غيرها فتزداد

قوة ، ويطالب العرب بما يدعمهم لمواجهة القوة المتزايدة لاسرائيل فيرفض الغـرب الأوروبى والأمريكى ان يعـطى ، ويقبل الاتحـــاد السوفيتى ان يعطى ، ولكن هذه المرة ببعض الشروط :

* شروط تتعلق بطريقة توريد السلاح ، بحيث يصل السلاح وتتمهل قطع الغيار ، وهكذا يكون الخيار اما الخضـوع . للشرط السـياسى هذه المرة ، والا يتحول السلاح الى ركام من الحديد البارد ، وأظنك يا (جعفر) قد عشت هذه التجربة معهم .

* شروط تتعلق بدفع قيمة السلاح ، يبدأون بالمحاصيل الزراعية ، ثم السلع الغذائية ، ثم المنتوجات الصناعية المتاحة ، ولقد دخلت معـهم فى تجربة مريرة ، حيث كان تزايد طلبهم على الأحذية المصرية ، كاد أن يكون بداية لعودة مصر الى عهد الحفاء .

* شروط تتعلق بالتدريب ، بالنسبة لمن يذهبون الى هناك ، فأولى الأولويات تعلم الروسـية ، ثم بعـد ذلك دراسـات فى الماركسـية وفى مدارس الكادر ، والتى هى جـــزء لا يتجـــزء من مراكز التدريب هناك .

* شروط تتعلق بالخبراء ، ومن هؤلاء من يتحدث الانجليزية افضـل منى ومنك ، ومنهـــم من يجيد العـــربية بلهـــجة اهلى فى السـودان ، ومع ذلك فلابد من مترجـم ينقـل من الروســية إلى العربية ، ثم من العربية الى الروسية . .

والهـدف زيادة فى قاعدة الوجـود البشرى . والنتيجـــة تبديد للوقت ، والأهم نفور يصنعه الملل ، بالنسبة لمن ينشدون خبرة هؤلاء الخبراء .

* شروط تتصل بالسيادة . . وهم فى هذا يجمعون بين سذاجة

الريفيين ومكر الريفيين أيضـا ، يتوسـلون فى محـاولة التأثر بالحديث المسهب عن المبادىء ، دون ان يتحـرجوا عن الايحـاء وباشارات واضحة عن امكانيات للضغط المتاح ، فاذا جـابههم الرفض لما يطلبون ، يتحـدثون عن اثاره المحتملة على قيادات الحـزب فى (موسكو) ، وقواعد الحـزب فى (جـورجيا) ، وكيف ان الشـعب السـوفيتى الذى لا يبخـل على اصـدقانه بالمسـاعدة ، انما يتوقع من أصـدقائه التجـاوب ، فإذا صـادفهم الرفض بعد ذلك ، فانهم لا يتحرجون عن ممارسة ضغط واضح وصريح .

* **شروط تتصل باستخدامات السلاح ، وفى هذا المجال ، فهم لا يطرحون حـدود الاسـتخدام صراحـة ، وانما يحـددون مدى الاستخدام فيما يقـدمون من سـلاح ، طـائرات تعـجز عن المناورة الفعالة سـواء بالنسـبة للهـجوم أو الدفاع ، قاذفات لا تتوافر فيهـا مرونة الحـركة ، بالنسـبة للاقلاع أو الهـبوط أو سرعة التحميل . دبابات تجـاوزها العصر مقـارنة بما يملكه الخصـم والذى يعـرف السوفيت وبأدق التفاصيل حدود امكانيات جيش اسرائيل ونوعيات تسليحه .**

* **ثم شروط لا تنفذ . .**

وتلك تتعلق بمواعيد التسليم ، حيث العاجل مؤجل ، وحيث المتفـق عليه ، ينبغى اعادة الاتفاق عليه .

وهكذا ومرة أخرى تتعـامل اسرائيل مع قوة معـطلة وهى تعـلم انها معطلة ، ومع ذلك فهى تدخل فى حسابها وحساب الآخرين .

يتضاعف الدعم ومعه العـطف الأمريكى والأوروبى لاسرائيل ، على حسـاب قوة محتملة للعـرب ، بما فى ذلك اتفـاقات مجمدة ، وصفقات معطلة ، وشـحنات تضـل طـريقها ، فتخـرج من موسكو

وكأن وجهتها القاهرة ، ولكنها تصل فى النهاية الى وارسو أو براغ أو القطاع الشرقى من برلين .

ذلك جانب من الصورة ، يبقى الجانب الأهم ، وهو أننا كعرب ، انفردنا بمبدأ جديد فى التعامل الدولى ، وهو مبدأ الخصام فحين نصادف ما ينقصنا فإننا لا نحاول ان نستكمله ، وحين لا نصادف ما يرضينا ، فإننا لا نحاول أن نعدله .

وهكذا . .

واجهنا ازدياد النفوذ الاسرائيلى فى بعض الدول الأوروبية ، فلم نحاول ان نعادله بنفوذنا ، وانما بادرنا بالقطيعة ، فخلت الساحة كل الساحة لمزيد من نفوذ اسرائيل .

وهكذا . .

تركنا الولايات المتحدة الأمريكية ، لسنوات وسنوات ، تخاطبنا من خلال الوسطاء ، بينما نحن على البعد نتباكى على النفوذ الصهيونى المتزايد فيها ، والتأثير الاسرائيلى المتعاظم داخلها .

وهكذا . .

انقطع الحوار العربى الأمريكى ، الا فيما يتعلق بالصفقات بالنسبة لبعض الدول العربية الغنية ، وفيما يتعلق بالمعونات ، بالنسبة لبعض الدول العربية الفقيرة . بينما الحوار السياسى العربى ، والوجود السياسى العربى ، لا وجود له هناك .

ويقول السادات . .

تسألنى يا (جعفر) كيف توصلت الى النغمة الصحيحة فى التعامل مع الأمريكان ، أقول لك ، حتى نلحق بالعشاء قبل أن يطل علينا الفجر ، فنصل الصيام بصيام .

كانت الصورة التى طرحتها عليك واضحة فى ذهنى تمام الوضوح ، كل ما فعلته اننى قلبتها ، ومنذ اللحظة الأولى التى التقيت فيها (بكيسنجر) فى القاهرة حينما جاءنى مبعوثا من نيكسون ، ليساعد فى الوصول الى تصفية سلمية لمشكلة الثغرة وفض الاشتباك بين القوات ، كان واضحا انهم فى واشنطون يعيدون النظر فى حساباتهم القديمة والجديدة معنا .

- **لم يكن هناك مشكلة وجود سوفيتى فى مصر بعد قرارى بطرد الخبراء قبل حرب اكتوبر ، وهكذا انتفت مخاوفهم من خطر يتجاوز اسرائيل الى مصالحهم فى المنطقة .**
- **لم يعد هناك احتكار سلاح ، وبالتالى لم تعد هناك احتمالات احتكار نفوذ لدولة عظمى فى مصر والمنطقة .**
- **لم تعد اسرائيل قلعة قادرة على حماية مصالحهم فبعد الانتصار المصرى فى حرب اكتوبر ، تهاوت اسطورة القوة الاسرائيلية التى لا تقهر ، وقبلها تهاوت نظرية الأمن الذى يصوغه تكدس السلاح .**
- **لم تعد هناك أوهام حول نوعية بشرية ممتازة تنفرد بها اسرائيل بعد حرب اكتوبر ، فكفاءة التخطيط المصرى للمعركة كانت ضربة لهذا الوهم ، وكانت كفاءة التنفيذ المصرى للمعارك الجوية ، وتشغيل الدفاع الأرضى ، واستخدام المدرعات ، والمواجهة بالسلاح الفردى**

مع المدرعات ، كل ذلك كان نهـاية لوهم التفـوق النوعى للمقـاتل الاسرائيلى .

*** ثم الأهم ، اننى كنت راغب فى الحوار] ويقول السادات . .**

لقد قال لى (هنرى) ، وبعد دقائق من مقابلتى الأولى معـه ، لقد فهمنا فى واشنطون اشارتك البليغة ، حينما طالبت الولايات
المتحدة والاتحاد السوفيتى معا أن يتعاونا معا لفـرض احترام قرار وقف اطلاق النار فى الأيام الأخيرة من حرب اكتوبر .

كان ذلك بالنسبة لنا يعنى انك على عكس ما توهم البعض ، لم تطلب تدويل القضـــية ، وانما كنت تقصـــد الحيلولة دون الاستقطاب الدولى حولها .

ويقول السادات . .

قلت له . . هذا صحيح يا (هنرى) . .

ولقد كان هذا بداية قصتى مع أمريكا .

* * *

الفصل الرابع

السادات.. موعد مع قدره

- المبادرة . . تدبير أم فكرة صاغها الأنفعال
- مخاوف فى الخرطوم من احتمالات التورط
- بعد زيارة القدس : لماذا التقينا ؟
- مؤتمر القاهرة من بديل لجنيف إلى لقاء ثنائى .
- بيان رئاسة الجمهورية السودانية
- لماذا تحفظت بشأنه الإذاعات العربية ،
- وأذاعت نصه القاهرة

عاد المسافر دون أن يسافر ، فعجبت . . دخـل مكتبى بالاتحـاد الاشتراكى السودانى ، فسألته عن السفر ، فأكد انه سيسافر .

بدأ وكأنه يعانى اضطرابا ، فتجاوزت صمته لأسأله عن السـفر من جديد .

موعد الطائرة . . لم يبق عليه غير دقائق ، لماذا هو هنا وليس فى المطار ؟

بل كان فى المطار ، وانه بعـد ان اكمل اجـراءات السـفر غادره ليأتى هنا ليقابلنى .

وأسأل . .

هل هناك ما هو عاجل . . ؟ ويقول : بل هناك ما هو خطير . .

ما الخطير . . ؟

ويقــول : اننى اعلم انك تعــلم ، رغم انه لم يمض على اذاعة الخبر سوى دقائق .

وأدرك على الفــور انه يقصــد ما أذاعته اسرائيل منذ دقائق ، ربما ليس أكثر من عشر دقائق بأن السادات سيقوم بزيارة للقدس بعد يومين ، أدركت ذلك مما أشـار اليه الرجـل عن خبر واذاعة ،

ثم اننى أدركته ايضـــا ، من معـــرفتى بما يمكن ان يثيره مثل هذا الخبر فى نفسه .

قبل ذلك بأيام كان قد التقى بى ، حيث جرى بيننا حوار حـول ما أعلنه الســادات فى مجلس الشـعب المصرى ، عن اســتعداده للذهاب الى القـدس ومخـاطبة الكنيســـت الاسرائيلى ، وفى هذا الحوار ، طـرح تحليلا يسـتبعد فيه ان يقـوم الســـادات بمثل هذه الزيارة وكانت لديه الأسباب :

❋ ان العبارة التى تضمنت الاستعداد للقيام بهذه الزيارة ، كانت قد سـقطت من الصـحف المصرية التى نشرت النص الكامل لخـطاب السادات .

❋ انه كان واضحا لمن تابعوا خطاب السادات ان العبارة التى تضمنت نية الزيارة ، انما اقحمت على النص المكتوب وانهـا كانت ارتجـالا وانفعالا فى وقت واحد ، كما ان الصـيغة التى طـرح بهـا السـادات الفكرة ، انما هى صيغة العزم على مواجهة المستحيل فى حـالة تعـذر الممكن .

❋ إن (عرفات) كان يحضر جلسة مجلس الشعب الذى ألقى فيه السادات خطابه الصاعق . وليس معـقولا ان يكون الســادات قد فاجـأه كما فاجـأ الدنيا بهـــذه الفكرة . وليس مقبولا ان يكون (عرفات) على علم مسبق بها ، ومع ذلك يحضر ويسمع .

❋ إن (اسماعيل فهمى) وزير خارجية مصر ، والذى كان يحضر اجتماعا لمجلس الجامعة العـربية فى تونس ، قد وضـع النقـاط فوق كل الحـروف ، حينما أخبر زملاءه وزراء الخـارجية العـــرب « إن الريس يناور » .

* إن السادات وهو (المنوفى) الشاطر ، لا يمكن أن يكون جادا فى تنفيذ ما أشار اليه عرضا ، ذلك انه فى تاريخ الأمة العربية هو أول من حقق لها نصرا فى مواجهة عسكرية مع اسرائيل ، ولهذا فان نفس الرجل لا يمكن ان يغامر برصيده لتنفيذ فكرة لا يجرؤ سواه على مجرد التفكير فيها .

* إن محاولة القفز فوق حاجز النفور العربى من اسرائيل ، هو قفزة الى المجهول ، وهو ما يعلن السادات دائما انه يرفضه .

وبالرغم من اننى كنت أرى غير ما يرى ، فلقد وافقته يومها على منطقية منطقة ، ولكننى أذكر اننى قلت له :

ان هناك فارقاً بين رجل الدولة الذى يملك المعلومات والذى من خلالها يقرر ، وغيره الذى لا يملكها ومع ذلك يحلل .

كما اننى وان كنت أرى فيما أعلنه السادات قفزا فوق كل ما يمكن تصوره ، الا اننى ولهذا السبب بالذات ، استبعد ان يكون ما اعلنه مجرد انزلاقه لسان كما يقول ، أو انه نتيجة انفعال وارتجال خرج به عن النص المكتوب .

وأذكر ان الذى سافر ولم يسافر قال لى بعد ذلك ، انه تأكد الآن من يقينه ، بأنه يعرف ان الذى يربط أنور بجعفر لا يسمح الا بصدق المصارحة حتى بالنسبة للنوايا . .

ولذلك فلو كان ما أعلن ليس مجرد انزلاقة لسان لأخبرك ، ولو علمت منه لما طرحت على الآن تحليلا ، وانما سردت وقائع ، وسافر المسافر بعد ان افرغ امامى مخاوفه ، من رد الفعل العربى

والدولى ، وكيف يمكن ان يتجنب السودان الاعاصير والعواصف القادمة .

نصيحته كانت ان يلتزم السودان الصمت فلا يعلق .

سافر المسافر ، وانتظرت هبوب العاصفة . . . لم يطل انتظارى فلقد بدأت سوريا تهاجم ، ومنظمة التحرير الفلسطينية تدين ، وصوت (العقيد) يردد ألف مرادف ومرادف لكلمة الخيانة .

وفيما عدا ذلك فلقد كان الاتزان هو ما تميز به رد الفعل فى عواصم الاعتدال العربى .

مرت الأيام . . .

حلقت طائرة السادات فوق سماء القدس ، هبطت ، نزل ، صافح ، وتعلقت العيون . . ملايين العيون بالمشهد الصاعق . .

مراسم الاستقبال كاملة نقلتها شبكات التلفزيون العالمية .

وبالنسبة لى . .

فلقد كانت هى المرة الأولى التى اسمع فيها موسيقى النشيد الاسرائيلى ، لم يطف على البال ان اسمعها ، بل ولم يخطر على البال اننى من الممكن ان أسمعها .

وبالنسبة لى . .

فلقد كانت المرة الأولى التى أشاهد فيها شخصيات اسرائيلية يعكسها التلفزيون وهى فى حالة حركة ، قبل ذلك كانت الشخصيات اسماء أكثر

منها صوراً ، وكانت الصور مطبوعة لا تتوقف العيون بالتأمل فيها .

وبالنسبة لى . .

كانت المرة الأولى التى أرى فيهـــا علم مصر وعلم اسرائيل فى تجاور ، قبلها ما كان العلم الا بديلا للعـلم . . . ما أقسى الذكريات تاريخ ووقائع .

وبالنسبة لى . .

فلقد كان المشهد كله صـاعقا ، بأكثر مما كنت اتصـور ، فما أنا الا واحد من جيل عايش ذكريات هى مرارة المرارة . .

* مذابح الأربعينات فى (دير ياسين) .
* مذابح الستينات فى (بحر البقر) .
* هزيمة عربية ، فهزيمة عربية ، فهزيمة عربية ، فهل يغسل النصر العربى فى اكتوبر مرارات السنين .

وبالنسبة لى . .

فلقد كانت الصورة المتحـركة للشخصـيات الاسرائيلية مداخـل لتداعيات بغير عدد . .

* (جولدا مائير) ، والتى اعلنت يوما ، ان حدود اسرائيل هى كل ما يصل اليه الجندى الأسرائيلى .
* (موشى ديان) ، الذى اعلن يوما ، ان ما تحقق له فى حرب الأيام الستة يفوق اكثر احلامه جنوناً .
* (مناحم بيغين) ، وذكريات الأرهاب أيام الانتداب البريطانى ، من نسـف فندق الملك داود فى القـدس ، الى الاخـلاء بالقـوة للمدن

والقرى الفلسطينية من سكانها العرب .

* (شارون) ومرارة الثغرة . .

كل ذلك لم أتحمله وأنا على البعد أشاهده من فوق شاشة التلفزيون ، كيف تحمله السادات اذن ، وهو على هذه الدرجة من القرب الجارح .

فى الصباح يؤدى صلاة العيد فى الأقصى ، ثم يلقى خطابا امام الكنيست .

بعد صدمة المشاهد فى وقفة الأضحى ، تأتى صدمة الرد على خطابه يوم العيد .

يخاطبه (مناحم بيغين) فيقول :

* ان اسرائيل لا تريد أن تشترى السلام بالأرض ، فأرض اسرائيل مقدسه .

* ليس هناك ما يسمى بالضفة الغربية وقطاع غزة بل هما يهودا والسامرا ، جزء لا يتجزأ من أرض اسرائيل التاريخية .

* لا كلمة عن حقوق الفلسطينيين انما هم فى الداخل سكان فى ارض اسرائيل ، وهم فى الخارج لاجئون ، تتولى لجنة غوث اللاجيئين فى الأمم المتحدة شئونهم .

* إن السلام مع اسرائيل ، هو سلام مع كيانها القائم ، سواء ذلك الذى ارتفع عليه علم اسرائيل لحظة قيام الدولة ، أو ذلك الذى (استعادته) اسرائيل فى مختلف الحروب .

صدمة المشاهد يوم وصل الى القدس ، وصدمة الكلمات يسمعها والعالم معه وهو فى قاعة الكنيست . كيف يتحمل السادات هذا

كله . . ؟ والأهم ، لماذا يتحمل السادات هذا كله . . ؟

سؤال رافقنى طوال اليوم الأول من أيام عيد الأضحى فى عام المبادرة إن صح التعبير ، وهو سؤال كنت أعلم ان لا احد غير السادات يملك الاجابة عليه ، وبالرغم ان المهنئين بالعيد لم يكن لهم من حديث غير المبادرة والخطابات المتبادلة فى الكنيست ، فلقد كنت أتابع حديثهم دون ان اشارك مشاركة فعلية فيه .

فى صباح اليوم التالى ، وهو ثانى أيام عيد الأضحى دعوت لاجتماع طارىء يشارك فيه أعضاء المكتب التنفيذى للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى السودانى ، ومعهم اعضاء مجلس الوزراء .

فى الاجتماع ، اعدت السؤال ولم أطلب من أى من المجتمعين اجابة .

لماذا تحمل السادات ما تحمل . . ؟

وأضفت ، واننى دعوتهم لهذا الاجتماع للتشاور حول زيارة أنوى القيام بها الى القاهرة ، لأطرح نفس السؤال على السادات ، لأننى اعتقد انه وحده يملك الاجابة .

عارض من الحاضرين اثنان . .

أحدهما فى رحاب الله منذ سنوات رحمه الله ، والآخر أمد الله فى أيامه ومتعه بصحته وشبابه ، وهو ما زال حتى الآن يشغل منصبا سياسياً قيادياً مرموقاً .

عارضا الاقتراح معا ، واتسع لهما الوقت ليطرحوا الأسباب ومنها :

* إن الزيارة قد يفهم منها ، أنها تأييد للمبادرة وليست مجرد استفسار عن المبادرة ، وفى ذلك خلط ضار .

* إن السادات حين قرر فانه قرر وحده ، وحين سافر فانه ذهب منفردا ، وحينما عاد ، فانه لم يتطوع بتفسير لأقرب الأقربين للقاهرة ، وهى بغير شك الخرطوم .

* إن السادات بالفكرة فضلا عن تنفيذها كان قد دفع نفسه ليواجه عاصفة ، وهو الآن وبعد ان تمت الزيارة أصبح فى مركز العاصفة ، فما الذى يدفعنا لكى نقف فى مهب الرياح .

وأتولى الرد فأقول . .

* إن تحديد المواقف قرار ، والقرار اى قرار لكى نضمن له السلامة ، لابد ان تتوافر قبله معلومات وقبل ان تترتب عليه نتائج ومضاعفات . وفى هذا الاطار فاننى أرى ان زيارتى للقاهرة مطلوبة ، لكى اعرف ممن يعرف ، ولا اكتفى بمعرفة الانطباعات .

* إن السادات فى الكنيست ، لم يطرح الا ما أجمع العرب عليه ، تحرير الأرض العربية بما فى ذلك القدس ، حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة . .

ما هو الجديد لكى نتفادى لقاءه حتى لا تحسب علينا مواقفه ، ليس هنا جديد غير الساحة التى تحدث فيها والجمع الذى استمع اليه .

* إن (السادات) استمع كما استمعنا لما قاله (مناحم بيغين) ، والذى

هو وحده المسئول عما يقول، وانه ليس من العدل فضلا عن العقل ان نحاسب من استمع على ما قاله من تكلم، ومرة اخرى فيم الحرج من لقاء مع (السادات) ؟

* ليس صحيحا ان (السادات) قرر وحيدا وسافر منفردا، لقد طرح القضية على (الأسد) والذى رفضها، وهو رفض لا يلزم صاحب الفكرة بألا يضعها موضع التنفيذ.

وإذا كان (السادات) قد اختار (الأسد) ليشاوره، فذلك لأن الأسد شريكه فى حرب اكتوبر، ومن المنطقى ان يتشاور رفقاء الحرب اذا ما فكروا فى أنسب الصيغ الموصلة للسلام.

* إننى لست غاضباً ولا عاتباً على السادات لأنه لم يشاور الخرطوم قبل سفره للقدس، فلديه بغير شك أسباب لذلك. إلا أنه ليس هناك ما يمكن ان يكون سراً بعد عودته من القدس وهو ما أريد ان اعرفه منه، وهو واحد من مبرراتى لزيارته فى القاهرة.

* إن السادات عابر فى تاريخ مصر، كما اننى عابر فى تاريخ السودان، فلا خلود الا لشعب يعيش على امتداد النيل شماله وجنوبه، واذا لم نكن فى الجنوب مع الشعب فى الشمال فى ساعات قد تكون هى الخطر او هى الحرج، فمتى نكون معهم، بل ولماذا نكون معهم فى ساعات اليسر والرخاء.. ؟

وتحدث غيرى وغيرهم..

واتخذ القرار باجماع لم يخرج عليه سواهما، ذلك الذى رحل مأسوفا عليه، وذلك الذى يحتل الآن فى التنظيم السياسى أعلى المواقع.

وفى اليوم الثالث من أيام عيد الأضحى أصل القاهرة، وفى قصر القبة يكون مع أنور السادات اللقاء.

* * *

فرحته باللقاء صاغتها دموعه ودموعى ..

كنت أعرف يا (جعـــفر) كنت أعرف ، راهنت نفسى انك قادم ولن يطول انتظارى حتى آراك .

ونعود للعناق من جديد ..

يهدأ انفعال اللقاء .. ثم أسأله واسمع منه ..

وهنا ومرة أخرى فاننى انقل عن مذكراتى :

يقول السادات ..

قرار المبادرة صاغته ظروف ماقبل المبادرة ، وعلى الأصح نتائج حرب اكتوبر ، فلولا الحرب لما طافت فى خيالى ، ولولا الانتصـار فى هذه الحرب لما جرؤت على التفكير فيها ، حرب اكتوبر بكل المقـاييس كانت بالنسبة لى تعنى الكثير .. تعلمت من الاعداد لهـا ، تعـلمت من الاقدام عليها ، تعلمت من تداخـل القـوى العـالمية بالنسـبة لآثارها ونتائجها .

ما تعلمته من الاعداد لحـرب أكتوبر ، هو الصـبر على المكاره ، والحرص على الهدف ، وتجاوز التفـاصيل ، ومغـالبة النفس حتى تقبل ما تكره ..

ورثت عن عبد الناصر مسئوليات عظمى ، الى الحد الذى كنت اقول فيه لنفسى احيانا ، ليت الذين تصـارعوا على السـلطة بعـد غياب عبد الناصر نجحوا فى تحقيق اهدافهم ، ذلك ان هذا النجاح يمكن أن يكون هو العقاب الذى يفوق عقاب السـجن لمن سـجن منهم ، عقاب القهر لمن فشل فيهم فى تحقيق اغراضه .

انت تعلم ان السلطة اى سلطة ليست ترفا يا جعفر ، هى عذاب المسئولية ، فاذا أضيفت اليها ظروف مصر يوم رحل عبد الناصر فان المسئولية لا تعود مجرد عذاب بل ما يفوق العذاب خاصة ان الظلام كان مخيما على كل جوانب الصورة .

الوضع العسكرى :

* ولقد كانت الأزمة فيه ، توفير احتياجات الدفاع وتوفير احتياجات الهجوم أيضاً ، خاصة ان اسرائيل كانت تبادر بعمليات اجهاض مبكر ، وذلك من خلال اخلالها الدائم بتوازن القوى وبينما كانت الترسانة العسكرية الأمريكية تعطيها ولا تبخل ، كانت الترسانة السوفيتية تتمهل فى مجرد مناقشة طلبات السلاح .

الوضع العسكرى أيضاً :

* ولقد كان المطلوب معه ، رفع الكفاءة القتالية للمقاتلين ، فى ظروف تشبه ظروف المعركة القادمة ، موانع مائية ، معارك الصحراء اقتحام مواقع حصينة .

فى الوضع العسكرى كذلك :

* فلقد كان تأمين الجبهة الداخلية مطلوباً ضد غارات اسرائيل وضرباتها فى العمق ، وبغض النظر عن اهمية حماية المنشآت الاستراتيجية وأرواح السكان ، فان الأهم هو حماية الروح المعنوية للشعب وقواته المسلحة ، بحيث لا تتأثر بضربات اسرائيلية لا يقابلها رد رادع .

وفى اطار هذا الهدف كانت اسرائيل تخطط وتنفذ عمليات ليس لها نتيجة عسكرية بقدر ما لها من نتائج دعائية ونفسية .

من ذلك مثلا ، الهجوم الاسرائيلى على قناطر نجع حمادى ، ومن ذلك أيضاً تفكيك زادار فى احد المواقع المصرية ، والفرار به بواسطة طائرة عامودية .

فى الوضع العسكرى أيضاً :

* حماية المقاتلين خاصة الجامعيين منهم وحملة الشهادات المتوسطة والفنية من ملل الانتظار لسنوات داخل الخنادق ، فلا هم قاتلوا ولا هم خرجوا الى الحياة المدنية يستثمرون خبراتهم ، يكونون أسرا ويمارسون حياة .

وفى الوضع العسكرى كذلك :

* فان الحفاظ على الانضباط بالنسبة للضباط والجنود فى الجبهة لم يكن ضرورة عسكرية فحسب ، وانما كان ضرورة استراتيجية ، ففى الوقت التى كانت فيه قوات اسرائيل على الشاطىء الشرقى لقناة السويس تستفز الجنود والضباط على الضفة الغربية المقابلة من القناة ، كان الانضباط المطلوب يفوق قدرة الصبر حتى لا نتورط فى معركة غير محسوبة .

وفى الوضع العسكرى أيضاً :

* فلقد كان التخطيط للمعركة لا يعنى مجرد توفر السلاح وكفاءة التدريب ، وانما معهما تجهيزات هندسية تمهد للعبور ، وانشاءات معمارية لاقامة وحماية معدات الدفاع الجوى وكل ذلك على مرأى من البصر من العدو . ولهذا فان هذه الانشاءات والتجهيزات كانت تكلفتها بالدم أغلى الف مرة مما تكلفته من اموال .

بالنسبة للجبهة الداخلية :

* لقد كان غياب عبد الناصر انحسارا لظلوارف،ذلك أن قيادته العملاقةكانت

توحي بالأمل في النصر وان تعذرت اسبابه ، بينما كنت كخلف له بعد رحيله لا املك بريقه ، ذلك انني لم اكن في دائرة الضوء في عهده ، رئيساً لتحرير صحيفة الجمهورية ، أميناً عاماً للمؤتمر الاسلامي ، وكيلا لمجلس الأمة ثم رئيسا لهذا المجلس ومن المعروف في العالم الثالث عموما ، بأن الأضواء لا تسطع الا على شاغلي المناصب التنفيذية .

وهكذا فلقد غاب مع غياب عبد الناصر الصبر على الأمل ، ليحل محله تعجل لتحقيقه .

* انه وفي هذا الاطار أيضاً ، فلقد كنت قد خرجت لفوري من معركة مع مجموعة مراكز القوى والتي ملأت الدنيا ضجيجاً ، بأن خلافها معي لم يكن الا خلافاً على معركة ، يريدونها فوراً ولا أريدها أبداً .

* إنه ونتيجة لذلك ، فلقد ساد مناخ هو مناخ نفاد الصبر .

تقدم الأدباء ومنهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم بمذكرة تطالبني بحسم القتال ، تظاهر الطلاب ، بل واعتصموا في أهم ميادين العاصمة ، مطالبين بنفس الهدف .

وفي الوقت الذي كانت فيه خطتي هي كسب الوقت لاستكمال مقومات معركة منتصرة ، وكسب الوقت وهذا هو الأهم لاقناع اسرائيل بأنني لست في عجلة من أمري ، فلقد كان مطلوبا مني ان اتظاهر بالغضب من ممارسات الضغط التي تطلب فورية القتال ، وان أتيح لها وفي الوقت نفسه فرص التعبير ولأسباب متداخلة منها :

* إنها قد تحرك الدب السوڤيتي لينفض عنه ثوب التراخي والمماطلة بالنسبة لما نطلبه من سلاح .

* ان تقتنع اسرائيل ، بأن ضغط الرأي العام في اتجاه القتال هو انعكاس لقناعة الرأي العام بغياب إرادة القتال عند قيادته ، ولقد كان ذلك

مطلوباً كتمهيد لتحقيق المفاجأة الاستراتيجية حين يأتي وقتها ، كما كان مطلوباً لتسترخى اسرائيل بدورها ، فلا تقوم بضربة اجهاض مبكرة .

بالنسبة للوضع العربى :

* فلقد كان على ان اكون زائرا شبه دائم للمملكة العربية السعودية ، وللحق فلقد وجدت من المغفور له الملك فيصل كل دعم .
* أن أتجاوز عن ممارسات المزايدة بل والمراهقة لدى بعض النظم العربية ، خاصة من جانب القذافى الذى تعرفه . .
* أن أبشر ولا أعد ، أن اطلب العون ولا التزم ، والأهم ان اجد صياغة جديدة لمفهوم وحدة الصف ووحدة الهدف بما يزيل مرارات مترسبة من الخمسينات والستينات فى العالم العربى .
* أن اجد للتضامن العربى صيغة أشمل مما هو شائع ، بحيث يقترب من المقولة الماركسية مع بعض التعديل ، بحيث يكون المعنى المقصود للتضامن العربى ، من كل حسب جهده وبكل حسب امكانياته .
* أن أتحاشى الوقوع فى دائرة المحاور العربية ، بحيث لا أحسب على يمين او يسار فى الساحة العربية ، ألا أكون صاحب تصنيف أو مشارك فى تصنيف للانظمة العربية ، لأنظمة تقدمية واخرى رجعية .

ولما كان العرب ، ونحن منهم ، يعيشون فى أواخر القرن العشرين بعقلية القبائل ، فإن التعامل بغير تصنيف كان مرهقا ، كما ان التعامل خارج نطاق التصنيف كاد ان يكون مستحيلا .

وفى الساحة الدولية :

* لقد اكتشفت واكتشف جمال رحمه الله قبلى ان اسرائيل هى معادلة دولية ، بمعنى انها صيغة الوفاق ونقطة الالتقاء بين القوى الأعظم .

وإلا فبماذا تفسر الاغداق الأمريكى عليهـا بالمال والسـلاح ، والاغداق السوڤيتى عليها بالبشر والكفاءات .

* لقد اكتشفت وربما يكون جمال قد اكتشف قبلى ، ان هناك فارقاً بين العقل الذى يرسم السياسات وينفذها فى الكرملين والعقل الذى يرسـم السياسات وينفذها فى واشنطون .

فبينما يعـطى السـوڤيت بحـدود لا تدفع بهـم الى التورط ، فان الأمريكان اذا اقتنعوا فانهم يعطون الى حدود التورط ، والمثال واضـح فى ڤيتنام .

* لقد اكتشفت ومن المؤكد ان جمال قد اكتشف قبلى ، ان لدى السوڤيت ممارسات قاتلة بالنسبة للدول التى يتعـاملون معـها والتى لا تدين بالماركسية .

فى هذه الحالة فهم يضغطون على نقاط حاجتها اليهم ، ويعطونها بما لا يسمح لها لمجرد التفكير فى اتخاذ مواقف نابعة من ارادتها .

فاذا كانت الحاجة غذاء ، فهم لا يعطون الا فى موعد الوجبات ، ليس قبلهـا ، بحيث يصـوغ الاطمئنان فرص التمرد ، وربما بعـدها حتى تضمن الحاجة اكتمال الولاء .

واذا كانت الحاجة سلاحا ، فهـو دائما دون احتياجـات الدفاع ، بحيث تظل الجسور مفتوحة بضـغوط الاحسـاس بالأمن المفقـود ، والذى لا يهـدهده غير الأمل من جـانب ، والمماطلة لا الرفض من الجانب الآخر .

واذا كان الوضع خطرا ، كأرض تحت الاحتلال تطلب مقـومات تحريرها ، فإن المقامرة الروسية تتجاوز حدود الاثارة .

ولسـت واثقـا مما أقول ولكن عندى بعض الشـواهد ، وهى شواهد تتعلق بمصر قبل وبعد عدوان يونيو سنة ١٩٦٧ ومنها :

* إن الاتحاد السوفيتى يدرك ان تصاعد الصراع المصرى الاسرائيلى، انما كان فى الجانب الأهم منه صراعا امريكيا سوفيتيا فى المنطقة، وان اسرائيل وان تحملت عبء المواجهة فيه نيابة عن الولايات المتحدة، فان الولايات المتحدة لم تبخل عليها ابداً بالمساندة السياسية، وسجل مجلس الأمن حافل بقوائم الفيتو الأمريكى، والذى يكاد يكون مقصورا على مشروعات القرارات التى تدين اسرائيل، ولا المساندة الاقتصادية أيضاً، فمن المعروف ان بين الخزانة الاسرائيلية الخاوية وبين الخزانة الأمريكية الثرية اكثر من حبل سرى يربط واشنطون بتل أبيب، ولا بالمساندة العسكرية طبعاً، فالنكتة الشهيرة تقول، ان كل سلاح فى اسرائيل مدموغ بعبارة تقول: صنع لإسرائيل بدلا من صنع فى اسرائيل، وفى هذا ما يكفى للاشارة لمصدر السلاح، بينما مصر والتى حاربت كل معارك الاتحاد السوفيتى فى المنطقة بداية بتحقيق وجوده الفاعل فيها، وضرب محاولات اقامة الاحلاف المعادية له فى داخلها، وكسر موجة العداء التقليدى له، فلقد كانت دائما مدفوعة الى مواجهة الخطر نيابة عن الاتحاد السوفيتى، بل كانت مدفوعة لمواجهة الخطر لحساب الاتحاد السوفيتى بل وكانت مدفوعة للخطر بواسطة الاتحاد السوفيتى.

ويسألنى السادات..

هل تريد دليلا على ذلك يا جعفر؟، عندى أكثر من دليل:

* لقد كان الاتحاد السوفيتى مسئولا عن جريمة الانفصال جزئيا على الأقل، فلقد وقف مع عبد الكريم قاسم وهو يهاجم دولة الوحدة حتى سقطت دولة الوحدة، وهكذا تحررت اسرائيل من طوق كان يحاصرها، سوريا من الشمال، ومصر من الجنوب، ولقد كان لهذا الطوق علم واحد، ونشيد واحد، واسم واحد، هو الجمهورية العربية المتحدة.

* **لقد كان الاتحاد السوفيتي** يعرف على الأقل بواسطة خبرائه العسكريين فى مصر ولا أقول مخابراته فيها ، عن درجة الكفاءة القتالية داخل الجيش وتوزيع القوات ومستوى التدريب وذلك قبل عدوان يونيو مباشرة ، فلماذا لم ينصح بالتمهل عند بداية الأزمة ، بل لماذا دفع بالأزمة الى حد التورط .

* **لقد كان الاتحاد السوفيتي** فى مصر عند نشوب القتال ، كان له فيها خبراء ومدربون وعشرات المئات من السوفيت العاملين فى مختلف المرافق من السد العالى فى اسوان حتى مجمع الصلب فى حلوان ، وبينما طلبت الولايات المتحدة من رعاياها مغادرة اسرائيل مع تطورات الأزمة ، فلقد اكتفى السوفيت بالتنديد بالعدوان على مصر طوال مراحل القتال ، وبينما تواجدت الولايات المتحدة بالاساطيل بالقرب من مسارح العمليات للحد الذى طال فيها العدوان الاسرائيلى سفينة امريكية هى « ليبرتى » وقتل من طاقمها عشرات الجنود والضباط . فلقد اكتفى السوفيت بقراءة التقارير عن سير القتال .

* **لقد استهلك الاتحاد السوفيتي** طاقات الصبر عند عبد الناصر ، والذى أعلن على مائدة المفاوضات فى الكرملين قبوله بمبادرة روجرز ، أى قبول بالحل الأمريكى المطروح للأزمة ، فلماذا دفع السوفيت عبد الناصر الى حافة اليأس منهم ؟ ، وما الذى كان مطلوبا من عبد الناصر ليستجيبوا لما طلبه من شحنات السلاح .

* ثم اننى وبعد عبد الناصر ، كنت قد تجاوزت حدود الصبر معهم ، رحلاتى الى موسكو أصبحت تنافس زياراتى لقريتى (ميت أبو الكوم) والتى لا تبعد عن القاهرة الا بعشرات الكيلو مترات .

كادت موسكو ان تصبح بالنسبة لى مزارا شهريا ، اطلب السلاح فلا يستجيبون ، الح فى طلب السلاح فيماطلون ، اذهب من اجل

السـلاح ، فأفاجـأ بمن يقـول لى ان القيادة السـوڤيتية كل القيادة السوڤيتية قد انتقلت الى (القرم) طلبا للراحة والاستجمام ، كان ذلك وهم يعـلمون موعد حضـورى ، كان ذلك وهم يعـلمون مدى حـاجتى لسلاح ليس للهجوم ، وانما للدفاع عن عمق مصر .

ويقول أنور السادات . .

لقد كانت حساباتى تشير إلى أن السوفيت يعتقدون أن مصر فى دائرة الخطر ، إنما هى فى دائرة السيطرة عليها من جانبهم ، ولهم فى ذلك ما يسـتندون إليه ، فلقـد كان عبد الناصر هو الذى طلب المزيد من الوجـود السـوفيتى فى مصر بعـد عدوان يونيو ، وكانت حساباته تقوم على أسـاس دفعـهم على التورط ، ولكنهـم كثفـوا وجودهم ولكن بغير فاعلية تواجه الخطر أو حتى تحد منه .

السلاح المتاح ، بعضـه من مخلفـات الحـرب العـالميه الثانية ، والحـديث منه ينتمى إلى أجيال متخلفـة من صـناعاتهم الحـربية المتطورة ، كوادر التدريب بل كوادر التشـغيل السـوفيتية لبعض المعدات ومن بينها الطائرات المقـاتله ، يجـرى إختيارها بالتناسب العكسى ، الكفاءة الأقل ، والمهارة الأدنى .

وهكذا وبطائرات لا تقـارن بما هو متاح لاسرائيل ، وبطيارين لا يمكن مقـارنتهم بما توافر للطيارين فى إسرائيل من تدريب وخبرة ، تنشب معركة جوية فى خليج السويس بين ست طـائرات إسرائيلية من طـراز فانتوم ، مع إثنتى عشرة طـائرة سـوفيتية من طراز ميج ، وكان يقودها جميعـا طيارون سـوفيت ، وإذا بالمعـركه تنتهـى فى أقل من ٣٠ ثانية ، وإذا بالطائرات السـوفيتية جميعـها

ترقد محترقة فى مياه الخليج .

ويقول السادات :

لقد حسبت أننى إذا وفرت لهم ضمانات بديله لعلاقات دائمة مع مصر غير الخطر ، فلقد تزول حاجتهم لخطر يدفعوننا إليه ، وخطر يحرصون على بقائنا فى إطاره ، وهكذا وافقت على عقد معاهدة معهم ومع ذلك فلقد استمرت الأحوال على ما كانت عليه الأحوال قبل المعاهدة ، وأذكر أننى سألت أحد كبار قادتهم عما هو مطلوب منى أكثر من ذلك لأنال منهم ما أريد . . قال ضاحكا :

المطلوب أن تكون جزءا من حلف وارسو . .

سبقت عبارته ضِحكة ، وتلت عبارته ضحكة ، ومع ذلك فلا أظنه إلا جاداً .

ويقول السادات . .

تلك هى الظروف التى علمتنى الكثير قبل المعركة ، ما تعلمته خلالها وبعدها لا تضيف جديداً إلا ذلك الذى يتعلق بالامكانيات المتاحة لاستخدام القوة فى المنطقة ، فهناك حد فاِصل بين ما يمكن أن تتعرض له إسرائيل ، وتتغاضى الولايات المتحدة عنه ، وبما يمكن أن يهدد وجود إسرائيل ، ولا يمكن أن تتساهل الولايات المتحدة بشأنه ، وربما ذلك يكون هو الدرس الأهم فى حكاية الثغرة .

والعكس بالنسبة للاتحاد السوفيتى هو الصحيح ، فهى بما

توفره لنا من سلاح تضمن لاسرائيل وحدها حدود السلامة..

ويقول السادات..

ذلك إطار للأطار الذى فكرت من خلاله فى المبادرة، أن أتجاوز الوصاية السوفيتية علينا، وأن أتجاوز أيضا الحماية الأمريكية لاسرائيل، نتواجه ونتصارح لنعرف من غير وسيط، ما هى مساحات الخلاف وحجمه، وما إمكانيات الاتفاق وحدوده.

ولهذا ذهبت إلى القدس..

وأقول..

ولكن لماذا لم يسبق الفكرة تشاور على النطاق العربى..؟

يقول السادات..

لقد تشاورت مع من شاركنى الحرب، فهذا واجبى وحقه، ولذلك فلقد سبقت دمشق القدس فى إيقاع الحوادث.

وأقول للسادات..

ألا يشكل ما أقدمت عليه خطرا على ما نجحت فى تحقيقه، أعنى التضامن العربى...؟

ويسألنى هو هذه المرة..

ألم يكن خطابى أمام الكنيست حتى بالفاظه، صورة مكررة لما اتفقنا عليه فى مقررات قمتى الرباط والجزائر؟.

* الجلاء عن الأراضى العربية المحتلة.
* إستعادة القدس.

* الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى .
* عدل السلام .

ثم يقول السادات . .

ما هو الفارق بين جنيف الذى تأهبنا للذهاب إليها ، والقدس التى توجهت بالفعل إليها . . . ؟

جنيف على الأقل مدينة لا ننتمى إليها ، بينما القدس مدينة نطالب بها .

جنيف كان دونها محاذير وتحفظات وإختلافات وخلافات عربية ، بينما القدس كانت فكرة تحققت ، ومبادرة تمت ، وبداية طريق قد يكون بغير نهاية ، إلا أنه طريق تحدد بالنسبة لكل الأطراف

ويضيف السادات . .

ما هى المحصلة النهائية للمبادرة والزيارة ، لقد اتفقنا على مؤتمر يعقد فى القاهره ، تحضره سوريا والأردن ومصر وإسرائيل والفلسطينيون . . أليست هذه المعادلة هى نفس معادلة جنيف المطلوبة . . ؟

وأسأل . .

هل ستقبل الأطراف كل الأطراف الحضور . . ؟

يقول . .

بالنسبة للاردن وسوريا فأنا لا أتصور أن هناك ما يمنع ، بالنسبة

للفلسطينيين،ربما داخل المنظمة فرق وفصائل ومزايدات بغير عدد ، إننى أشك .

وأعده بأن أحاول مع المنظمة ولو بطريقة غير رسمية .

أعود للخرطوم ، يتم الاتصال غير الرسمى بالمنظمة ، ترفض المنظمة ، رغم أن البدائل أمامها كانت لصالحها .

* أن تقبل إسرائيل حضورها ، وبهذا تعترف بالشعب الفلسطينى وحقوقه ، ما دامت ارتضت التفاوض مع من يمثلونه .

* ان ترفض إسرائيل وجود المنظمة ، ووقتها فلقد كان من الممكن أن تكون المبادرة والزيارة مجرد كسب إعلامى وسياسى للعرب وعلى مشهد من العالم كله .

هم طلبوا السلام وسعوا إليه ، وإسرائيل رفضت السلام وابتعدت عن طريقه .

* * *

يعقد المؤتمر فى القاهرة ، ترتفع فوق قاعاته أعلام سوريا وفلسطين والأردن ومصر وإسرائيل ، تصطف حول مائدة مستديرة مقاعد تتسع للجميع .

يخسر السادات رهانه . .

لم تحضر سوريا ، لم تحضر الأردن ، لم تحضر كما توقع منظمة التحرير ، تختفى بعض الأعلام من فوق الصوارى ، تتباعد بعض المقاعد من حول المائدة ، ليرفرف فوق القاعة علم مصر وعلم

إسرائيل ، ويتبقى داخل القاعة وحول المائدة مقعد لمصر وآخر لاسرائيل .

ويبقى سؤال يقول :

من الذى دفع السادات بالسعى لصلح يراه البعض منفردا مع إسرائيل . . ؟

* * *

الفصل الخامس

السادات.. موعد مع النفس

- السادات والسودان مواقف لاتنسى
- السادات من يعرفه على البعد لايعرفه أبدا ؛ ومن يعرفه عن قرب يستطيع الحكم عليه ، لذلك فلقد صفق السادات لمن أشفقوا عليه منه
- من كامب دافيد تلقيت دعوته فى واشنطون ، جددها فى مدريد ، فى الاسماعيلية كان لنا لقاء . . لماذا ؟

يا إبن الخال . .

نداء تحمله نبرات صوت تهتز له القلوب فى السودان . .

يا إبن الخال . .

فهو إبن العمة فعلا ، جذوره فى السودان وأصوله فى مصر ، ككل سودانى أصيل . .

يا إبن الخال . .

نداء ما يكاد يطلقه السادات حتى تترجمه القلوب فى السودان ومصر إلى وشائج هى الأبد ، ولقد أخلص لوشائجه رحمه الله . .

الغريب فى علاقتى بأنور السادات ، إنهـا لم تكن علاقات زماله ولا حتى علاقات صداقه ، وإنما هى علاقات قرابة فيهـا كل ما يميز علاقات القربى ويتميز بها الأقرباء .

مودة يؤججها البعد ولو كان خصاماً ، محبه يثيرها القرب ولو أسفر عن خلاف ، إختلافات رؤية كما أسميها ، لقاء مع النفس كما كان يصفها السادات .

كان السادات دون العالمين ينادينى بأسمى الأول (جعفر) ،

تماما كأبناء العم وأبناء الخال والأخ والشقيق

كان السادات وأسرته ، يخصوننى وأسرتى برعاية تتعالى على ذلك المعروف فى التعامل بين الرؤساء بل وحتى الأصدقاء ، رعاية هى بساطة المودة ، هى خلاصة المحبة ، هى تلك التى يحسها الانسان فى عين الانسان ، جزع عند المحن ، قلق لأبسط المتاعب ، لهفة فى كل لقاء ، لوعة فى كل فراق .

كان السادات وأسرته دموعاً فى إنتظارى يوم زرته فى الاسكندرية بعد محاولة الغزو الليبى للسودان سنة ١٩٧٦ .

عانقنى وهو يبكى ، بكاء الرجال الذى يهز الرجال .

صغيرته تتعلق بي ، الكبرى والوسطى والزوجة تتلون ملامحهم بالجزع وأنا أسرد عليهم إيقاع الأحداث ،

يرتفع صوته يقاطعنى . .

لماذا يا جعفر هذا التهاون فيما لا تهاون فيه . . ؟ تقارير سفيرى فى الخرطوم حملت لى تفاصيل مذهلة ، لم يكن المطار مؤمنا عند وصولك ، لم تكن هناك حراسة كافية ، كانت المعلومات متوافرة عن أحداث متوقعة قبل ساعات من وصولك ، ومع ذلك حدث ما حدث . . . المهم حمداً لله على السلامة . . . حمدا لله على ألف سلامة .

ويقوم من مقعده ليعانقنى من جديد . . . .

أنور وجعفر :

علاقة هى الحب ، ذلك الذى دعا إليه فما مل يوما دعوته ، ولا يئس أبدا من إمكانية بناء مجتمع المحبة .

علاقة هى الحب ، ذلك الذى يضخم العتاب فيحسبه الغافل عداء ، بينما هو عنده مجرد عتاب ترتفع فيه نبرات صوته ، بينما قلبه الودود ملىء بالمحبة .

علاقة هى الحب ، فما عرف الغضب حتى مما يدعو إلى الغضب ، وما تجاوز الغضب أبدا إلا طرف لسانه .

علاقة هى الحب . .

فما عرف قلبه إلا الصفاء ، وما عرف صفاءه إلا الأقربون إلى قلبه .

يزور الخرطوم فى مايو الماضى ، ليشارك أبناء خاله إحتفالاتهم بعيد ثورتهم ، فى خطاب المناسبة كان لابد أن يأتى ذكره ، أمسك القلم وأخاطبه وأكتب :

ان علاقات التداخل بين السودان ومصر ، ان امكانيات التكامل بين مصر والسودان ، أن روابط الرحم والقربى والتاريخ والمصير ، التى تربط الشعبين أنما تتيح لى أن أخاطبك فأقول لك أخى الرئيس السادات .

انه لايمكن أن تنعزل مصر عن الأمة العربية ، ذلك أن مصر بالعمق والاتساع ، بالكثافة السكانية والامكانيات الاقتصادية ، بالتواجد الفاعل فى القارة الأفريقية والأمة الاسلامية ، بالوزن المؤثر فى الساحة الدولية ، ان مصر بتلك الأمكانيات جميعا للأمة

العربية وللمصير العربى والمستقبل العربى .

أننا بالانتماء مع امتنا العربية ، ومصر بالمصير لأمتها العربية .

ذلك أنهـا مصر بالعـرب ولغـيرهم لاتكون ، وهى مصر للعـرب ولغـيرهم لن تكون ، هم ساحة نضـالها ، هم جـوهر دورها ، هم تأكيد قيادتها ، هم تجسيد ريادتهـا ، هم شركاء عطائهـا ، هم رفاق معاركها والتى كانت لهم ولها ، والتى ستظل لهم

ولها حتى يحق الحق وتتحـرر الأرض العـربية كلهـا وتتحـرر الارادة العربية من كل تهديد .

أننى أقول لأخى الرئيس السادات إنك اليوم هنا فى الخـرطوم ، عاصمة الصمود التى اسـتقبلت ناصر عقـب هزيمة سـنة ١٩٦٧ ، لتؤكد له وللامة العربية وللعالم أجمع ، أن النكسة العـابرة لاتعـنى الهزيمة الدائمة ، وان خسارة معركة لاتعنى نهاية الطريق .

أقول له يا أخـى أنور ، انك هنا فى عاصـمة السـودان ، والتى حققت رغم جرح الهـزيمة سـنة ١٩٦٧ تضـامنا عربيا تصـاعد وارتفع ليشارك فى صـياغة النصر العـربى فى حـرب أكتوبر سـنة ١٩٧٣ م .

أقول له يا أخـى أنور ، انك هنا على أرض ثورة الخـامس والعشرين من مايو ، والتى كانت أولى الثورات العـربية بعـد النكسة ، والتى تفجرت لتؤكد حيوية الأمة العـربية وقدرتهـا على تجديد العطاء .

أننى أقول لك يا أخـى أنور ، أنك كنت شـاهدا على ماقدمه

السـودان بغض النظر عن أية اعتبارات تتعـلق بشخصى ، يوم خاض السودان بحار الدم والنار فى الأردن سـنة ١٩٧٠ مسـتهدفا انقاذ الثورة الفلسطينية والتضامن العربى ، أننى أقول لك يا أخـى أنور ، ان صوتى قد ارتفع منذ أسـابيع فى هذه القـاعة ، وفى مؤتمر دولى للدعوة الاسـلامية ، أقول فيه وبالصـوت العـالى ، أنه من ضرورات التضامن العربى والاسلامى الا تنعزل مصر عن أمتهـا أو تعزل مصر عن أمتها .

أقول لك يا أخى أنور ، أنك قد استعدت أرضا مصرية الا أنهـا أرض عربية ومع ذلك فأن ماتبقـى من الأرض العـربية المحتلة مازال تحت الاحتلال والقهر مازال عرضة للعدوان والبطش ، بل ومازال المزيد من الأرض موضعا للمطامع الاسرائيلية .

أقول لك يا أخـى أنور ، ان مكان مصر فى الأمة العـربية ومع الأمة العـربية وللامة العـربية ، فاذا كان قد أمكن تجـاوز عداء سنين ، فكيف لايمكن أن نتجـاوز خـلافات شـهور ، واذا كان قد أمكن عبور حـواجز الكراهية ، فكيف يمكن أن نتجـاهل أواصر القربى .

ولهـذا كله فاننى أعلن هنا وبحضـورك بأن السـودان على استعداد لأن يسهم فى أى جهد عربى ، وكل جهـد عربى ، للدعوة لقمة عربية تشارك فيهـا مصر ويكون هدفهـا الوصـول الى صـيغة للعمل العربى الموحد ، وفى اطار مقررات قمتى الجزائر والرباط .

ان هناك مايمكن الاتفـاق عليه ، رغم كل مايمكن أن يتفجـر الخلاف حوله .

هناك التزام مصر بعروبتها ، هناك انتماء مصر لأمتهــا ، هناك حرص مصر على استعادة الحق العربى والأرض العربية المحتلة وعلى رأسها القدس ، هناك اجماع دولى على حقــوق الشــعب الفلســطينى ، هنا مبادرة أوربية تتكامل ولا تتناقض مع الأهداف العربية ، هناك مناخ دولى متفهم ومتقبل لعقد مؤتمر دولى لتحقيق السلام الشامل والعادل فى المنطقة وبحضور كل الأطراف .

هناك ماهو مطلوب لاسرائيل ، حتى لاتنزلق مع الوهم ، بأنهــا تستطيع أن تواجه العرب بغير مصر ، وتستطيع أن تواجه مصر معزولة عن العرب .

اننى أعلم أيها الأخوة ، أن ما أدعو اليه قد يساء فهمه وقد يساء تأويله ، اننى أتوقع ومنذ الآن

اذاعات تتبارى فى الهجوم ومقالات تتحدث عن الخيانة ، اننى أعلم أن مثل هذه الدعوة صدمة لمن يستثمرون الخــلاف العربى لخدمة مصالحهم وخدمة القــوى الدولية التى يعــملون لحسابها ، اننى أعلم مشقة ما أدعو اليه ، بل ان ذلك يدعونى بأن ألح فى الدعوة ، وأطالب أن يشاركنى فيهــا كل مخلص لأمته وعدالة قضيته ، ذلك دور مطلوب من الجامعة العربية ، وهو دور مطلوب من المؤسسات السياسية والمنظمات الشعبية على امتداد الوطن العربى .

اننى أعلم أن مادعوت اليه ، انما يتطلب احتكاما لصوت العقل لا لصوت الانفعال ، يحتاج الى الصبر وضبط النفس وقدرة على

رؤية ظلام المستقبل فى أطار ماتعايشه أمتنا العربية فى حاضرها .

انه يتطلب ومن كل الأطراف تجاوز مرارات وجراح هى مخلفات بالغة الدقة فى تاريخ أمتنا العربية .

أنه يتطلب أن يرتفع صوت العقل على صوت الانفعال ، أن يعلو العمل من أجل مستقبل هذه الأمة على كل الاعتبارات .

* * *

يتحول النص المكتوب بخط يدى الى مطبوع ، فتقع عليه بعض العيون ، وأفاجأ بثلاثة من الوزراء يطلبون مقابلتى لأمر عاجل ، اقابلهم ، أرى على وجوههم حيرة لا أعرف لها سببا ، أسأل . . يقول واحد منهم :

انها الصدفة وحدها التى أتاحت لنا أن نطلع على نص خطابك والذى سوف تلقيه بحضور الرئيس السادات .

وأسأل . .

هل هناك ملاحظات عليه . . ؟

يقولون فى صوت واحد :

نعم . . ذلك الجزء الذى يخص الرئيس السادات .

وأسأل . . لماذا ؟

وتتداخل أصواتهم للحظة ، ثم ينفرد واحد منهم بالحديث ، بينما عيون الاخرين ورؤوسهم تتحرك موافقة على كل مايقول .

* أن الرئيس السادات فى الخرطوم بعد فترة من فتور العلاقات صاغها فهم خاطىء وتضخيم خاطىء من جانب بعض

الأقلام العربية .

* ان الفتور وفى جانب من أسبابه ، يتعلق بعلاقات مصر مع العرب ، وعلاقات مصر مع اسرائيل .

* ان هذه الفقرة من خطابك ، والتى تخاطب فيها الرئيس السادات ، تبدو وكأنها ضغط على جرح اندمل ، أو هى على الأقل قد تثير ألما فى موضع الجرح القديم .

* ان الرئيس السادات قد لايتحمل صراحتك وقد يخطىء فى فهم نواياك ، وهكذا وبدلا من أن تداوى الزيارة جروحا ، فقد تتسبب فى جروح يعز لها دواء .

* ان المطلوب والقرار لك ، أن تحذف هذه الفقرة من الخطاب ، للأسباب المذكورة .

وأسألهم . .

هل تعرفون السادات . .؟

وتلون الدهشة ملامحهم . .

وعندما أكرر السؤال . .

يقول أحدهم :

ومن ذلك الذى لايعرف السادات ، اننا نسمع خطبه ونقرأ أحاديثه ، ونتابع سياسته داخل مصر وخارجها .

أقول لهم . .

ما أقصده ماهى وسيلتكم لمعرفته . .؟

يقول واحد منهم :

مانسمعه منه ، وما نقرأه عنه .

أقول . .

ذلك هو الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون والذين يتعاملون مع السادات من السطح .

يقول :

وما العمل . .؟ أقول له . . لاشيء ، ستبقى هذه الفقرة فى موضعها من الخطاب والذى سوف يستمع اليه السادات .

يخرجون وبعد ساعة يعود الثلاثة باقتراح جديد .

اذا كنت مصرا على رأيك ، فهل هناك مايمنع من اطلاع الرئيس السادات على الفقرة التى تخصه ، قبل ان يفاجأ بها مع الجميع ؟

وأقول . .

نعم هناك مايمنع . . لن اعرض الخطاب عليه ولسوف يسمعه وهو جالس فى قاعة الاحتفالات . .

* * *

السادات يصل الخرطوم ، الجماهير تحيط به . . السادات يصل القاعة ، السادات على يمينى فوق المنصة ، أبدأ فى قراءة الخطاب ، أقترب من الفقرات التى تخصه ، أخطف نظرة الى حيث يجلس الوزراء الثلاثة ، أكاد أحس بنظراتهم تطلب منى أن اتجاوز تلك

الفقرات .. أواصل إلقاء الخطاب .. أصـل الى تلك الفقـرات .. اضـطر الى التوقف فى نهـايتها ، ذلك أن الســادات كان أول المصـفقين واخـر الذين توقفـوا عن التصــفيق .. أرى فى عيون الوزراء الثلاثة دهشة منعتهم من المشاركة فى التصفيق .

هذا هو السادات ، من يعـرفه على البعـد لا يعـرفه أبدا ، من يعرفه عن القرب هو وحده الذى يستطيع الحكم عليه .

***

أنور وجعفر ..

علاقة مشهود عليها ..

ما التقينا إلا على خـلاف ، وما تجـاوزنا الخـلاف كل خــلاف إلا بمزيد من المحبة .

الشهور الأولى من فترة رئاسته الأولى شـهدت أول الخـلافات وأعنف الخلافات ..

فى القاهرة التقينا ..

السادات والأسـد والقـذافى وشخصى ، لقـاء افترضـته روتينيا لدول ميثاق طـرابلس ، إلا أن القـذافى طلب خـلاله اعلان وحـدة فورية تضم الأقطار الأربعة . تحمس الســادات .. تحفـظ حـافظ الأسد .. عارضت أنا وعذرى ظروف خـاصة تتعلق بالسـودان ، لدهشتى وجـدت أن مجموعة على صـبرى ولقـد كانت جـزءا من وفد المباحثات المصرى تساندنى بحماس ، بل وبما يتجاوز حماس المسـاندة الى حـد الاعتراض على ماوافق عليه السـادات بالنسـبة

لمصر ، كان الموقف بالنسبة لى حرجا الا أننى أوضحت أن تحفظاتى تتعلق ببلادى ولا تمثل قيدا بالنسبة لباقى الأطراف ، أنفض الاجتماع دون التوصل الى صيغة مقبولة .

غادرت القاهرة الى موسكو ، وفى مطارها ابلغنى السفير المصرى بأن الوفود الثلاثة ، المصرية والسورية والليبية قد غادرت القاهرة الى بنغازى .

ساعات وعرفت بعدها أنه تم الاتفاق على اعلان وحدة ثلاثية تضم ليبيا ومصر وسوريا ، ابرقت مباركا ، وعدت من موسكو الى الخرطوم .

مرت شهور ، تطورت فيها الأحداث فى القاهرة فشهدت أحداث ١٥ مايو ، ثم شهرين وشهدت الخرطوم أحداث ١٩ يوليو ١٩٧١ ، أثارت أحداث الخرطوم ردود فعل على مستوى العالم .

حاول السوفيت أن يضغطوا بالسادات على الخرطوم فرفض ، وحاول القذافى أن يتعجل السودان للدخول فى تجربة وحدوية ورفضت ، ولذلك فلقد كان شخصى أولى تجارب العقيد فى الهجوم ، ثم كانت أجواء بلدى هى أولى محاولاته لممارسة الارهاب الدولى .

طائرة ليبية تخترق مجالنا الجوى بغير اذن بالمرور تؤمر بالهبوط ، تهبط فى مطار الخرطوم ، يتضح أنها تحمل سلاحا وجنودا متوجهين من طرابلس الى كمبالا للمشاركة فى الصراع الدائر هناك ، نطلب من الطائرة الليبية العودة بشحناتها ، تعود الى

طرابلس، وقبل وصولها تبدأ الاذاعة الليبية الهجوم على السودان، وبعدها بساعات، تشاركها الصحف المصرية والاذاعة المصرية فى هجوم مسائل ودون سابق انذار.

تتوتر العلاقات بين القاهرة والخرطوم، تتأزم العلاقات بين القاهرة والخرطوم، تعلن صحف القاهرة عن صدور قرار باغلاق الجامعة المصرية فى العاصمة السودانية، يفشل النيل لبعض الوقت فى حمل مشاعر المحبة، فلقد بدأ هجوم هناك، تلاه هجوم هنا.

وفجأة يصلنى من السادات مبعوث خاص، التقى به... أيام وأجد نفسى فى جانكليس بالقرب من الاسكندرية، وهناك نتعانق، وهناك نتصارح، وهناك يعلن منهاج التكامل الاقتصادى بين مصر والسودان.

* * *

فى نيويورك، اتلقى من السفير السودانى بالقاهرة برقية تقول:

«انفرد بى الرئيس السادات خلال حفل زفاف كريمته، وطلب منى ابلاغك بأنه يرجو حضورك إلى مصر لمقابلته وانت فى طريقك إلى الخرطوم»

ويعترض من الوفد المرافق ثلاثة وزراء.. ..

كانت اتفاقيات كامب دافيد قد تم توقيعها فى البيت الابيض قبل أيام، وكانت المعارضة العربية للاتفاقية قد وصلت إلى حد الانفعال المحموم، وكان من رأى الوزراء الثلاثة أن على السودان ألا ينفرد بموقف يتعارض مع الاجماع العربى، وأن السادات الذى اختار

أن ينعــزل عن الســاحة العــربية ، لا ينبغــى أن تمتد بينه وبين السـودان الجسـور ، وأن الاســتجابة لطلب الســادات بزيارته فى مصر ، هى محاولة توريط بالاضافة إلى أنهـا محـاولة للافلات من العزلة .

وأسمعهم ولا أعلن . .

نغـادر الولايات المتحـدة إلى ألمانيا الاتحـادية ، ثم نصــل إلى بلجيكا فى زيارة قصيرة ، وبعدها إلى اسبانيا لعدة أيام .

فى مدريد يسلمنى السـفير المصرى رسـالة أخـرى يكرر فيهــا السادات الطلب ، فأعلن موافقتى على القيام بالزيارة .

تكهرب جو الرحلة منذ تلك اللحظة ، امتنع الحوار تقـريبا بينى وبين الوزراء الثلاثة .

لم يحاولوا بالطبع أن يعارضوا الزيارة بعـد أن أعلنت موافقتى عليها ، ولم يستطيعوا فى نفس الوقت التسليم بها بنفوس راضية .

غادرت الطائرة مطار مدريد ، حطت الطائرة فى مطار القاهرة .

لم يكن الرئيس السـادات بين المسـتقبلين ، لمحــت فى أعين الوزراء الثلاثة ما يشبه الغضب .

غادرنا المطار إلى قصر الطاهرة ، لم يكن الرئيس الســادات هناك ، تزايد الغضب فى عيون الوزراء الثلاثة .

ساعة أخرى ، انتقل بعدها ومعـى الوزراء الثلاثة نفس الوزراء الثلاثة إلى الســاحة الداخلية فى قصر القبة حيث كانت طــائرة

عمودية تنتظر .

يتحول الغضب فى عيون الوزراء الثلاثة إلى همهمة أسمعها .

كيف يغامرون به وبعد حلول الظلام بركوب طائرة عمودية .

تقلع الطائرة . .

زمن الرحلة بين القاهرة والاسماعيلية يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ دقيقة .

تمر عشرون دقيقة ، فثلاثون ، فخمسون ، والطائرة ما زالت تحلق فى الظلام، همهمة الوزراء الثلاثة تتحول إلى غضب مسموع ، لا يعلق طاقم الطائرة ولا المرافقون من الاخوة المصريين . . خمس دقائق أخرى وتهبط الطائرة فى ساحة شبه مظلمة .

السيارات فى انتظارنا ، خطوات ونصل إلى باب استراحة صغيرة ، على بابها كان يقف السادات ، ملامحه كانت تعكس ما يفوق الارهاق ، جفون مهدلة ، صوته مختنق ، ذراعاه الممتدتان للعناق لا تستقر طويلا حول كتفى كأنه لا يستطيع أن يحملهما ، خطواته إلى الداخل ينقصها الثبات ، يمشى وكأنه يتعثر ، يجلس كأنه يتأهب لنوم طويل ، يطول بنا الصمت ، مشاعرى تلونت بالقلق . . الرجل ليس الرجل ، أين حيويته ، أين نشاطه ، أين صوته الجهورى ، ماذا هناك ؟ .

تطل رأس من فتحة الباب ، يشير الى صاحبها أن يبتعد بحركة من يده

يجذب نفسا طويلا ، يتسلل صوته هامسا ، أكاد ألا أسمعه ، يشير أن أقترب بمقعدى منه ، اقترب يبدأ فى الحديث . .

ما بيننا يا (جعفر) لا يلزمنى بالاعتذار لك ، كما لا يسمح لك بأن تنتظر مثل هذا الاعتذار ، لقد كان تقديرى ـ وإن كانت ارادة الله غالبة ـ أن أكون فى استقبالك فى مطار القاهرة ، الا أنه وربما قبل أن تغادر مدريد بقليل فاجأتنى هذه الوعكة ، هى شديدة يا جعفر ، شديدة هذه المرة ، فكرت أن اطلب منك تأجيل الزيارة ، الا أننى كنت أريدك قبل أن تعود إلى الخرطوم .

لقد فاجأتنى هذه الوعكة ، وأنا هنا فى الاسماعيلية ، فكان لابد لكى أراك أن تأتى إلى هنا ، فلقد منعنى الأطباء من الحركة ، بل أجبرونى على النوم بوسائلهم التى لا تقاوم ، لقد استغرقنى النوم قبل أن تحضر بدقائق . . فعذرا يا أخى عذرا .

ويواصل . . نتناول العشاء معا يا جعفر ، بل تتناوله أنت ، وأنا أجلس بجانبك ، فغذائى منذ أول أمس أقراص وحبوب ونوم طويل فنوم طويل .

أعتذر عن العشاء الا أنه يصر ، يدق جرسا بجانبه ، يدخل من يطلب منه اعداد المائدة . . قبل أن نخرج إلى صالة الطعام ، كان قد أخبرنى بما طلبنى لأجله . . يقول . .

*** اننى زرته فى القاهرة عقب عودته من القدس لأسمع منه مبررات مبادرته .**

*** وهو فكر أن يزورنى فى الخرطوم ، لكى أسمع منه تفاصيل**

محادثات كامب دافيد والاتفاقيات التى وقعت هناك ، الا أنه فضل أن يرانى قبل عودتى للخرطوم منعا لأى حساسية وتفاديا لأى حرج ، خاصة فى ظل المناخ العاصف الذى يسود المنطقة العربية .

* إنه قرأ لى تصريحا أصدرته فى واشنطون قلت فيه ، إننى سوف أعلن رأيى فى اتفاقيات كامب دافيد ومعاهدة السلام بعد عودتى للخرطوم وفى اطار ما تقرره المؤسسات .

* انه لم يدعنى ليشرح لى أبعاد ما حدث فحسب ، وإنما الأهم ليقول لى بصدق الصراحة إن صدره لن يضيق لو أعلنت رأيا يعارض الاتفاقية والمعاهدة ، فهو يرى أن الخلاف فى ظل العلاقات ممكن بل ومطلوب ، بل إن تعدد الاجتهادات قد يكون مفيدا لكل الاطراف .

ثم يقول فى النهاية :

* يا جعفر لقد حددت رؤيتى لظروف مصر والعالم مجالات اختيارى ، وإن من حق غيرى بل ومن واجبه أن يتحدد اختياره حسب رؤيته لظروفه .

ونخرج إلى صالة الطعام ، يشاركنا فيها حسنى مبارك ومصطفى خليل ، والوزراء الثلاثة ، نتظاهر بأننا فرغنا من تناول العشاء بسرعة ، فلقد كان ملحوظا للجميع مدى حاجته للعودة إلى فراشه من جديد .

* * *

أعود إلى الخرطوم، ويصدر بيان رئاسة الجمهورية، والذى يتضمن تحفظات على الاتفاقية والمعاهدة، ويصف بعض مواضعها بالغموض فيما يتعلق بالاراضى العربية، والاغفال لوضع مدينة القدس، والتجاهل للمفهوم المطلوب لقضية الشعب الفلسطينى.

وتمتنع الاذاعات والصحف العربية عن التعرض للبيان بنصه الكامل، وإنما تكتفى بالاشارة اليه باعتباره مؤيدا لاتفاقيات كامب دافيد.

اذاعة واحدة نشرت نصه الكامل، ولقد كانت إذاعة القاهرة.

* * *

فى مكتبى بقاعة الصداقة بالخرطوم التقى بأنور السادات فى شهر مايو الماضى، موضوع الحديث كان يدور حول ما طرحته فى خطابى حول أهمية التضامن العربى وعودة مصر للساحة العربية.

وفى تلك الجلسة سمعت منه ما أسعدنى

يقول أنور السادات :

*** فليعاملنى العرب على الأقل كما يتعاملون مع الولايات المتحدة بل والامم المتحدة، فهم لا يقاطعون الدولة ولا يقاطعون المنظمة رغم**

باسرائيل ، ورغم عضوية اسرائيل فى المنظمة الدولية .

يقول أنور السادات :

* إن العرب يتحدثون عن انفراد اسرائيل بمصر ، فلماذا لا يعودون إلى مصر ليزاحموا اسرائيل فيها .

فى مصر لى صديق اعتز بصداقته هو (ابراهيم شكرى) ، والذى يتزعم حزب العمل المعارض ، ابراهيم شكرى وحزبه رفعوا يوم فتح السفارة الاسرائيلية فى القاهرة شعارا ، يقول ، فلنرفع مليون علم فلسطينى فى مقابل علم واحد لاسرائيل .

وفى اطار هذا المنطق ، لماذا لا تزاحم اعلام عشرين دولة عربية علم اسرائيل الواحد فى القاهرة .

يقول أنور السادات :

* **لقد أدمن العرب الانسحاب أمام اسرائيل ولقد كانت مصر إلى وقت قريب تشاركهم هذا الادمان .**
* **كنا جميعا ننسحب أمام اسرائيل ونترك لها الارض .**
* **كنا جميعا ننسحب أمام اسرائيل فى المنظمات والاجتماعات الدولية لتنفرد هى بالمنابر .**
* **كنا جميعا ننسحب أمام اسرائيل اذا حققت علاقة متميزة مع إحدى الدول ، فنقطع علاقاتنا الدبلوماسية معها ، فتنفرد اسرائيل بها .**

وهكذا قاطعنا لبعض الوقت الولايات المتحدة حتى أصبحت اسرائيل هى الدولة الأحق بالرعاية فيها .

هكذا قاطعنا ألمانيا الاتحادية ، حتى تمكنت اسرائيل منها .

* وها هم الاخوة العرب ، ينسحبون بالجامعة العربية من القاهرة ، تاركين اسرائيل تنعم وحدها بنيل الجزيرة ، واهرامات الجيزه ، وأكثر من ألف سنة ارتبطت فيها مصر بالعروبة والاسلام ، وهكذا يتمكن صوت واحد من أن يسكت عشرين صوتا .

يقول أنور السادات :

* انه رغم ما حدث وما يمكن أن يحدث فان مصر لن تنفصل عن أمتها العربية ، ولا الأمة العربية من الممكن أن تنعزل عن مصر ، والدليل على ذلك ، أنه رغم المقاطعة والقطيعة العربية ، فلقد تزايدت الاستثمارات العربية فى مصر ، وزادت معدلاتها بعد قرارات المقاطعة ، كما أن تدفق السياح العرب والذى توقف عدة شهور اندفع لمصر بقوة أكبر ، كما أن العمالة المصرية فى الدول العربية تضاعفت فى نفس الفترة ، واستقبلت جامعات مصر أضعاف ما كانت تستقبله من الطلبة العرب قبل قمة بغداد .

ويقول أنور السادات :

* اننى ورغم كل شىء أجد العذر لبعض الاخوة ، وما زلت أحمل لهم فى نفسى تقدير الاخ ووفاء الشقيق ، ان اختلاف

زاوية الرؤية تفـرض الخـلاف ، الا أننى كنت أتمنى ألا يعـنى الخـلاف القـطيعة ، كما كنت أتمنى أن لا يعـنى الخلاف اتهامات الخيانة والعمالة .

اننى أعرف أننى تجـاوزت عصرى فيما ذهبت اليه ، ولا أنكر اننى قلت يوما ان جيلنا قد لا يستطيع أن يتحمل مسـئولية تطبيع العلاقات مع اسرائيل ، وإن ذلك قد يكون مسـئولية أجيال غيرنا ، الا أن ايقـاع الزمن من وجهـة نظرى ، كان أسرع مما تصـورت ، وذلك يمثل مرة أخرى اختلافا فى زوايا الرؤية .

فالذين يعـيشون ظـروف مصر ، قد لا يتمكنون من تقييم تأثير تلك الظروف ، فمصر خـاضت أربع حـروب فى أقل من ثلاثين عاما ، ومصر ضـحت بما يفـوق طـاقتها ، ومصر كانت وما زالت مطمعاً لسواها ، ومصر لا تملك الا جهد أبنائها ، فلا هى فى حجـم الكويت وثراء الكويت ، بحيث يكفيهـا القليل فتقنع ، معـدلات الزيادة فى السكان تصل إلى مليون نسمة فى العام الواحد ، ومساحة الارض المزروعة ثابتة ثبات الهرم ، ستة ملايين فدان فى تقـديرات التفاؤل ، وهى ذات المساحة التى كانت لمصر فى عهـد محمد على ، قبل مائة وخمسين عاما من الآن . اربعـة ملايين نسـمة وسـتة ملايين فدان فى عهده ، واثنان وأربعون مليون نسمة وستة ملايين فدان فى وقتنا الحاضر .

يقـولون التصـنيع ، أقول: جـاهز ، ولكن التصـنيع ليس خبرات ومهـارات وحسـب ، هو مواد وطـاقة قبل ذلك ، والاهم أسـواق مفتوحة أمامه ، ولتسأل الاخوة العـرب وهم السـوق القـادرة ، هل

تستطيع الصناعة المصرية أن تنافس مثيلاتها الامريكية واليابانية والاوربية فى أسواقهم.

لقد خاض عبد الناصر هذه التجربة، وباستثناء العراق وفى ظروف المد القومى، فلم يقبل غيره شراء عربات نصر المصرية، وبخلاف السودان فيما قبل مايو، لم يقبلها أحد ولو كهدايا.

ومع ذلك فلم يكن الوضع الاقتصادى وحده وراء الاتفاقية والمعاهدة، كان وراءها متغيرات العصر وارادة المجتمع الدولى، والذى فرض اسرائيل كواقع، وكان على الدوام يستهجن رفضنا للتعامل مع هذا الواقع.

ويقول السادات

* اننى مع هذا أقدر رواسب سنين من الكراهية والنفور والعداء، والذى لم يكن العرب هم المبادرين به، الا أن هذا التقدير لمشاعر الاخرين، لا يعنى قبولى بتجاهل مشاعر الملايين فى بلادى، والذين قالوا نعم للاتفاقيه والمعاهدة، ولم أقلها وحدى.

ان هناك من يقول ان شعب مصر يرفض السلام مع اسرائيل، الا أن ذلك ليس صحيحا بالاضافة الى انه غير عادل بالنسبه لشعب مصر، والذى لا يمكن أن تخضعه ارادة فرد واحد.

ويقول أنور السادات

* انه ومهما حدث ويحدث، فأنا بشخصى ومصر بشعبها، لن ننسى ارتباطنا بأمتنا، ولن أنسى شخصيا أيادى عربية

كريمة امتدت لمصر فى ساعات الحرج .

لن أنسى دماثة الملك خالد وحياءه وهو يعطى مصر ، وطلبه الملح منى ألا أعلن ذلك أو أشير اليه .

لن انسى لفهد رجاحة فكره واتساع افقه وقدرته العظيمة على تفهم ظروفنا فى أصعب المراحل .

لن أنسى للشيخ زايد ما اتصل وما لن ينقطع رغم كل شىء من روابط الاخـــوة ، وكيف أنسى له ما قدمه لمصر أثناء حـــرب أكتوبر ، وقبل حرب أكتوبر وبعدها .

لا أنسى موقفه النبيل حينما سألوه خلال حرب أكتوبر ، لماذا يقامر بايقاف انتاج البترول ، انه قال لهم : ان القضية لا تخص مصر وسوريا ، فهى فى البداية والنهاية قضيتنا .

لن أنسى للكويت وأمرائها مواقفهم الكريمه ، ولن أنسى لبومدين رحمه الله ، رحلته لموسكو خلال حـــرب أكتوبر ، حين تجاوز العرف الدولى ، فتعامل معـهم تعـامل المشــترى والبائع ، فدفع مائة مليون دولار ، ثمنا لصفقة سلاح عاجلة لمصر .

وأقول لأنور السادات :

فلتتوقف الحملات لبعض الوقت من جانب القاهره ، لعـل ذلك يضع نهاية لردود الافعال المتبادلة .

ويقول أنور السادات :

أوافق ياجعفر . .

ويغادر الخرطوم عائدا لبلاده ، وقبلها يعلن فى المؤتمر الصـحفى استعداده لدعم جهودى من أجل عودة التضامن العربى .

* * *

الفصل السادس

السادات.. موعد مع الأهل

- الفكر الماركسى وتشخيص السادات
- لقاء مع شقيق فكره وصديق عمره
- يوليو ١٩٧١

السوفيت يطالبون القاهرة بالضغط على الخرطوم

- موسكو تعاتب ، والسادات يرد : فى السودان أهلى
- من موريشيس الى الاسكندرية ، موعد مع الوفاء
- آخر لقاء . . خطوات لتأكيد التكامل

جسور الثقة المفقودة بين السادات والسوفيت فقدت قواعدها لاسباب وأسباب .

بعضها نظرى ..

فالسادات بالتحليل الماركسى ، لا ينتسب الى اسرة وانما ينتسب الى طبقة ، وهى فى حالتة البرجوازية الصغيرة المترددة التى لا تستطيع بحكم تطلعاتها أن تتبنى قضايا البروليتاريا (الطبقة العاملة) وبالتالى فهى لا تملك ثوريتها ، ولا تستطيع حتى لو ارادت أن تنجز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ، الخطوة الاولى للتحول الاشتراكى حسب المفهوم الماركسى .

وهى طبقة بذات المفهوم ، تتميز بالتردد ينقصها الحسم ، قد يمكن الركون اليها فى مرحلة من مراحل ثورة البروليتاريا ، الا أن هذا الركون لابد أن يتسم بالحذر ، والتحالف معها ينبغى أن يكون بمقدار ، والاطاحة بها واجبة فى الوقت المناسب ، وهى رغم كل ما يمكن أن تقدمه مرحليا فهى فى النهايه محسوبة على الاعداءالطبقيين ، فهى جزء من البرجوازيه المتوسطة بالتطلع ، وقد تكون أخطر من الاقطاعيين والرأسماليين ، ذلك ان وضعها المتميع بين الطبقات قد يمكنها من التسلل الى صفوف الطبقة العاملة بل

وقد تشارك لبعض الوقت فى تحمل مسئوليات النضال معها ضد الطبقات المستغلة ، الا أنها فى ذلك لا تكون محكومة بالمفهوم الثورى لحتمية الصراع الطبقى ، وانما تكون مدفوعة بالحقد الطبقى ، ليس بهدف القضاء على الطبقات الغنيه بتدمير مقدراتها الاقتصاديه على الاستغلال ، وانما القضاء على تميز أفرادها لوراثة تلك المميزات ، وبذلك فإن البرجوازية الصغيرة لا تعمل للقضاء على طبقة ، وانما للحلول محل طبقة بذات التركيب والفهم والممارسة والاستغلال التى كانت تمارسه الطبقة المدحورة .

ومما يحسب على هذه الطبقة حسب المفهوم الماركسى ، أن افرادها ولو ناضلوا فهم مغامرون ، وحتى لو دفعوا حياتهم ثمنا لهذا النضال فهم أيضا مغامرون ، ومع ذلك فإن استفادة الماركسى بهم مطلوبة لبعض الوقت ، فهم يمثلون أدوات فاعلة فى بعض المراحل ، وهم ما اصطلح الشيوعيون على التعامل مع أى منهم ، باعتباره (مغفل نافع) يحسبون عليه ولا يحسب عليهم ، يتعاون معهم وهم لا يخفون شكوكهم فيه ، يتعامل معهم كشركاء أو على الاقل حلفاء ، بينما هو فى التحليل النهائى لهم ، واحد من الاعداء بل هو أخطر الاعداء .

ويذكر (عبده دهب) وهو ماركسى سودانى قديم تقاعد منذ فترة طويلة عن ممارسة الفكر والعمل فى صفوف الشيوعيين ، وان لم يتقاعد عن ممارسة نشاطه الاقتصادى المثمر فى السودان حتى الان ، أمد الله فى أيامه ومتعه بالعافية والصحة .

يذكر (عبده دهب) انه فى الاربعينات فى القاهره ، كان عضوا

نشطا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى (حدتو) ، وهو تنظيم شيوعى ، تميز عن غيره من التنظيمات الشيوعية المصرية فى ذلك الوقت ، بالعمل الجماهيرى الواسع والتعامل غير المحدود مع سائر القوى الوطنية فى مصر والوطنيين المصريين كأفراد ، ومن هؤلاء محمد أنور السادات . . ضابط شاب كما يصفه ، متأجج المشاعر ، نافد الصبر ، يضيق صبره بالحركة البطيئة للعمل الشيوعى والتى تراهن على ما كان يسميه السادات حركة التاريخ الموهومة . . ومع ذلك فلقد ارتبط دهب والسادات بصداقة وثيقة ، تعدت العلاقات الشخصية الى العلاقات الاسرية ، رغم أن دهب فى هذه الفترة ، لم يكن ينتمى لاسرة ، وانما كان ينتمى لطبقة ، فلقد كان يعيش مرحلة ما قبل تكوين الاسرة فى ذلك الوقت . فتح السادات (لعبده دهب) قلبه وبيته ، توثقت بينهما العلاقات ، رباطا كان عند السادات من صلات الدم التى تربطه بالسودان والسودانيين ، وربما لإيمان السادات بوحدة كفاح بين شطرى وادى النيل ، وربما لان (دهب) كما كان يصفه السادات ، ليس من هذا النوع (الرذيل) من الشيوعيين الذين يلوكون الشعارات طوال الاربعة والعشرين ساعة .

ومع ذلك فلقد كان الخلاف الفكرى والمنهجى والعملى بينهما قائما .

(عبده دهب) ككل الماركسيين ، يعتمد على الحركة البطيئة وسط الكتل البشرية ، آملا أن تتحرك بفعل التناقضات الاجتماعية وبدفع حركة التاريخ ، بينما (السادات) كان يرى ويعمل حسب

رؤيته على اختصار المراحل ، والهجوم المباشر على الهدف ، وعدم الاعتماد على الزمن لتحقيق أهداف النضـــال الوطنى ، وانما توظيف الزمن لتحقيق هذه الاهداف ، وان للطلائع دورا يســبق الجماهير ، بل أن دور الطلائع لو كان فعــالا فلسـوف يحــرك الجماهير

خلاف فكرى خطير بين السـادات وعبده دهب ومع ذلك ، فإنه لم يفسد للود قضية . .

وتمر السنوات . . .

يعود خلالها (عبده دهب) الى السودان حيث يعـيش ويعــمل ، وتتميز حياة السادات خلالها أيضا بقفزات مذهلة وسريعة .

من السجن الى قمة السلطة ، فلقـد كان احـد قيادات ثورة ٢٣ يوليو .

ســنوات أخـرى ، ويعــاود عبده دهب الحنين الى مصر ، ولكن كيف الطريق الى مصر ، وهو على رأس قائمة الممنوعين من دخولها لنشاطه الشيوعى القـديم فيهــا ، ويتذكر صـديقه القــديم (أنور) يكتب له ، لا يتلقــى منه ما يفيد رفع اســمه من قوائم الممنوعين من دخـول مصر كما كان يرجـو فحســب ، وانما دعوة لزيارة مصر وفى ضيافة السادات .

فى القاهره يلتقى أصدقاء العـمر وخصـوم الفكر ، وفى مســتهل اللقاء وبعد العناق ، يقول السادات لعبده دهب .

هكذا حسم الزمن الخلاف بيننا ، هكذا فعـلناها ، ثورة وســلطة

فى وقت واحد ، لم ننتظر المراحل ولم نراهن على حركة التاريخ يا أسود .

ويرد (عبده دهب) على صديقه القديم . .

لا أستطيع ان اجادل فالسيف أصدق أنباء من الكتب ، ومع ذلك فما زال الخلاف بيننا قائما ، فلقد اعتدت عمرك أن تنادينى (يا أسود) ، ولقد كانت هذه التسمية أيضا واحدة من نقاط الخلاف بيننا ، واليوم فلقد كسبت أنت كل نقط الخلاف الا هذه النقطة ، فلا الزمن ولا الثورة التى نجحت ، ولا حتى موضعك فيها يهزم منطقى فى هذه النقطة ولنحتكم الى المرآة مرة اخرى ، لنرى أينا الأسود يا أنور . أعنى أينا الأكثر سوادا .

يضحك أنور السادات ويقول ، هذا صحيح ، صحيح يا أسود ، فليس هذا غريب ، فالسودان وطنى ، والسودانيون أهلى ، انتمى اليهم بما لا يمكن أن يزور ، فأمى سودانية .

* * *

بعد هذا الاستطراد أعود الى جسور الثقة المفقودة بين السادات والسوفيت ، فبالاضافة الى ما هو نظرى ، هناك ما هو ظرفى أيضا ، فلقد ارتبط السادات بالعمل الاسلامى ومنذ الايام الاولى ، فكان سكرتيرا للمؤتمر الاسلامى ، وكان هذا يعنى لدى السوفيت ، ان هذا الرجل بالطبقة والفكر والعقيدة لا يمكن أن يكون لهم ، بالاضافة الى أن السادات وحتى فى مراحل التوتر الخطر بين عبد الناصر وبعض النظم العربية المعتدلة ، فلقد كان السادات هو الحلقة الوحيدة التى لم تتأثر بعواصف الخلاف خاصة بين القاهره والرياض ، وكان حبيبا أثيرا له مكانة فى قلب العاهل

السعودى الملك فيصل العظيم رحمه الله ، ولقد كانت تلك أيضا ، احدى النقاط المحسوبة عند السوفيت على أنور السادات .

ومع ذلك فلقد فوجىء السوفيت كما فوجىء العالم برحيل عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

ولذلك فلقد كانت صدمتهم الصاعقة هى الموقع المتميز لانور السادات ، باعتباره النائب الأول لرئيس الجمهورية .

وهكذا أصبح الرجل المرفوض طبقيا هو الآقرب لتولى زمام الامور فى مصر ، بينما المحسوبون على موسكو ، أبعد ما يكونون عن مجرد الامل فى مناقشته، فالسادات بالشرعية الدستورية هو المرشح الانسب لتولى رئاسة الجمهورية ، والسادات بالشرعية الثورية هو الأحق بطرح نفسه على أجيال ثورة ٢٣ يوليو ، بينما الآخرون والذين أحاطوا بعبد الناصر فى سنواته الأخيرة ، كانوا على البعد من الجماهير ومشاعرها ، ومع ذلك حاولوا وفشلوا ، وتمكن السادات فى ١٥ مايو من القضاء عليهم ، ماذا بقى للسوفيت غيره ، ليس هناك غيره ، وضعوه أمام الاختيار الصعب بين توقيع معاهدة أو الامتناع عن توريد السلاح لمصر فقبل ، الا أن الاختيار الأصعب كان على موعد معه ومعهم بعد أسابيع من توقيع المعاهدة ، فلقد دبرت ونفذت مؤامرة شيوعية فى السودان فى ١٩ يوليو سنة ١٩٧١ .

وبغير شك فلقد كانت قلوب السوفيت مع ما يجرى فى الخرطوم خوفا من فشل المغامرة ، الا أن عيونهم كانت على القاهرة ، وعلى أنور السادات فيها رصدا لردود فعل .

ولقد فعل ورصدوا ..

بعد ساعات من تنفيذ المؤامرة ، كانت طائرة مصرية خاصة تهبط مطار الخرطوم ، لم يكن بها غير طاقمها سوى راكبين ، فى لقائهما مع قائدها نقلوا له رسالة شفوية من السادات تقول :

* ان امن مصر هو امن السودان ، وبالنسبة لهذه القضية ، فمصر لا تتلاعب .

* ان السادات يتحمل مسئولية شخصية بالنسبة لحياة نميرى وزملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة المعتقلين ، وانه يحملهم هذه المسئولية .

ويعود المبعوثان على الفور الى القاهرة ، وفى القاهرة كان (**خالد حسن عباس**) والذى أفلت من الاعتقال لانه كان فى مهمة خارج البلاد عند تنفيذ المؤامرة ، كان فى نفس هذه اللحظات يلتقى بالسادات والذى قال له ..

ان الجبهة المفتوحة حديثا فى السودان ، ليست أقل خطرا من الجبهة المتفجرة على ضفة قناة السويس الغربية ، وانا على استعداد .

ويرد خالد حسن عباس ..

« شكرا سيادة الرئيس ، كل ما نطلبه هو توفير طائرات لنقل الجنود والضباط السودانيين الموجودين بالجبهة المصرية ، لقد التقيت بهم بالامس ولقد حملونى هذا الطلب اليك ، لانهم

وباجماعهم يريدون العودة للسودان للدفاع عن وطنهم وثورتهم . »

وعلى الفور يصدر السادات أوامره باعداد الطائرات المطلوبة .

فى هذه الاثناء يتمكن الشعب السودانى وقواته المسلحة من ضرب المؤامرة واستعادة السلطة الشرعية ، يجرى خالد حسن عباس الموجود بالقاهرة اتصالا بالرئيس السادات ويقول له . . شكرا يا سيادة الرئيس ، اعتقد أن الموقف الان لا يستدعى عودة الجنود والضباط السودانيين الى بلادهم .

يقول له السادات . .

(لا يا عباس) . . بل يعودون على الفور فمن يدرى ماذا يخطط للسودان الان ، انكم لم تواجهوا حزبا وانما استراتيجية عالمية .

تمر أيام مجرد أيام ، ويصل مبعوث سوفيتى كبير الى القاهرة فى مهمة سرية ، يلتقى بالسادات ، ينقل له عتابا هو أقرب الى الغضب لموقفه من أحداث السودان الاخيرة . .

يروى لى السادات ما حدث فيقول :

تركته وهو فى البداية يحاول أن يصوغ الرسالة التى يحملها فى عبارات منمقة ، ولم اعلق ، فاعاد تركيبها فى صيغة أوضح ، فلم أعلق .

ظن أن المترجم فشل فى نقل الرسالة فأعادها عليه وطلب ترجمتها بدقة .

كل ذلك وأنا مشغول بغـليونى . . . وعندما انتهـى المترجـم من اعادة الرسالة على مسامعى مرة أخرى قلت له .

فلتقل للرفيق: ان في السودان اهلى ، وسكت وأسمع المترجم يسألنى ، هل هذا كل شيء ، قلت له ، نعم كل شيء ، ووقفـت على الفور بما يعنى إنهاء المقابلة .

* * *

تمر السنين ، وتهب عاصفة جديدة على السودان مرة أخرى .

وبينما كانت الاولى مصـدرها الشرق البعـيد فى يوليو سـنة ١٩٧١ ، فأن الاخرى كان مصدرها الغـرب القـريب ، ففـى يوليو سنة ١٩٧٦ ، قامت ليبيا القـذافى بتدبير غزو ضـد السـودان ، وفى خلال ساعات تتمكن القوات المسلحة السودانية والشعب السودانى من القضاء على الغزاة .

أتلقى برقية من السادات . . هذا نصها . . :

أحييكم أجمل تحية ويسعدنى أعظم سعادة أن أبعث أليكم وألى القوات السودانية المسلحة وإلى أخوانكم فى الحكومة ومن خلالكم جميعا ، الى الشعب السـودانى الشـقيق بأطيب التهـانى بمناسـبة قضائكم على المحاولات الغـادرة والعـدوان على السـودان وشـعبه وثورته المجيدة واستقلاله ووحدته الوطنية .

وانتهز هذه المناسـبة لأنقـل اليكم وإلى قواتكم المسـلحة تحيتى وتحية القوات المصرية المسلحة وتأييدها لكم بغير حدود .

ولابد انكم كنتم والشـعب السـودانى وقواتكم المسـلحة من ورائكم تقـدرون دائما طـوال هذه الأزمة الطارئة ، مدى تتبعـى

والشعب المصرى وقواته المسلحة لما تعرضتم له من عدوان دبرت له عناصر خارجية عن السودان . لتفتيت وحدة الشعب السودانى المجيد وسلامته الوطنية وللقضاء على انجازات ثورة مايو الباسلة ، وقد كان سرورى بالغا طوال الفترة الأخيرة كلما تلقيت منكم رسالة تطمئننى على المجهودات الباسلة التى قامت بها قواتكم المسلحة للقضاء على هذه المؤامرة غير المسئولة .

وقد كان الشعب المصرى وألامة العربية كلها تتابع الاحداث عندكم بوعى كامل من المسئولية ، ومن موقع الحرص على سلامتكم وسلامة السودان شعبا وحكومة وجيشا .

ولست بحاجة أيها الاخ العزيز الى أن اذكر ، اننى أثناء هذه الساعات التى مررتم بها كنت قد أصدرت التعليمات الى القوات المصرية المسلحة لكى تقوم بواجبها الكامل نحوكم ونحو الشعب السودانى ، اذا ـ لا قدر الله ـ تطورت الأمور الى الحد الذى يحتم علينا القيام بواجبنا المقدس نحوكم ونحو الشعب السودانى ، خاصة أن مدبرى المؤامرة قد اختاروا وقتا كنت فيه على وشك الوصول الى بلادكم العزيزة عقب تمثيلكم للسودان وشعبه على أعلى مستوى فى اتصالاتكم الدولية خدمة للحق العربى والشعب السودانى .

وفى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه جزء من قواتكم المسلحة بعمل مجيد فى لبنان لحقن الدماء بين الاشقاء فى لبنان ، والمحافظة على سلامة الشعب الفلسطينى الشقيق ، وبالتوازى مع ذلك وفى نفس الوقت كان جزء اخر من قواتكم بتمركز مع أشقائه رفقاء

السلاح قواتنا المسلحة على الجبهة المصرية ، ولهذا كله فان ما حدث عندكم لا يمكن أن يكون نابعا من السودان ، وانما هو نتاج مخطط خارجي مرسوم موجه الى الامة العربية كلها ممثلة فيكم وفى الشعب السوداني ، ولذلك فلقد كان من الضرورى والطبيعى أن أؤكد لكم من جديد نيابة عن الشعب المصرى وقواته المسلحة اننا جميعا نقف معكم والشعب السودانى وقواته المسلحة من ورائه ، ومن هذا المنطلق كذلك فنحن جميعا على أتم استعداد لكى نلبى نداء الواجب اذا استدعى الأمر .

وختاما أعبر لكم عن امتنانى لسماع صوتكم خلال إلقائكم لبيانكم واشادتكم بمصر ، مما كان له أطيب الوقع لدى الشعب المصرى ولدى ، وان كنا فى الواقع نعتبر أن ما قمنا به أمر لا يستحق الشكر من اخوة أعزاء علينا ، نشاركهم الأمل والألم وتربطنا بهم عبر التاريخ أواصر الدم والقربى والمصير .

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد أنور السادات

لا تعقيب على كلماته رحمه الله ، فما كانت الا تعبيراً عن صدق مشاعر ، وصدق نوايا ، وصدق عزم على الوقوف مع أهله فى السودان .

***

فى (مورشيس) ، حيث أنعقدت قمة أفريقية بعد الغزو الليبى للسودان بيومين ، ألتقيت بحسنى مبارك ، والذى طلب منى

وبالحاح أن أقوم بزيارة عاجلة لمصر ، عقب عودتى مباشرة الى الخرطوم ، فالسادات لديه ما يريد أن يقوله .

غادرت (مورشيس) الى الخرطوم ، ومنها الى الإسكندرية حيث التقيت بالسادات والذى لم يكن لدية شيء يقوله فحسب بل ، كان لديه أشياء يصر عليها .

فى استراحته فى المعمورة ، وبعد انفعال اللقاء وعلى مسمع من أسرته التى التفت حول عمها (جعفر) أسمع صوت السادات غاضبا :

كفانا يا (جعفر) كفانا ، ليس هناك بد مما ليس منه بد ، لقد عشنا العمر أطفالا وشبابا وشيوخا نتغنى بالكفاح المشترك والمصير المشترك بين مصر والسودان ولم نتقدم بعد ذلك خطوة .

ان الخطر على أهلى فى السودان هو خطر على أهلى فى مصر ، حقيقة لا يجادل فيها أحد ، ومع ذلك فحين يهب الخطر على السودان فإن الحقائق الجغرافية والسياسية تفرض نفسها ، هناك بعد المسافة ، وهناك الاعتبارات السياسية والدولية والتى قد تأخر ولا أقول تعطل ما هو مفروض على البلدين من وقفة واحدة فى مواجهة الخطر .

أنت زائل يا (جعفر) وأنا زائل ، لن يبقى بعدنا ، إلا الشعب هنا وهناك ، وهم هنا وهناك أهلى وأهلك ، فلنحول المشاعر الى وثائق ، فلتبعث فى طلب وزير دفاعك ، ووزير دفاعى جاهز هنا ،

وأنا وأنت هنا ، ولنوقع معاهدة دفاع مشترك . . وهكذا كان .

***

السادات ، والوقت ظهرا ، أو بعد الظهر بقليل ، فى يوم من أيام شهر رمضان الماضى على الباب الداخلى لقصر الصفا التقى به ، وأقول له كصاحب بيت **تفضل** ، بل تفضل أنت معى الان .

وندخل الى سيارته التى لم تكن أبوابها قد أغلقت بعد ، تنطلق السيارة الى حيث تربض طائرة عمودية ، تحلق بنا فوق البحر ، تعبر سماء المدينة ، تتجه غربا حيث الشاطىء الشمالى ، عيونه مركزة على الارض عبر النافذة المستديرة للطائرة ، وفجأة يطلب من الطيار أن يبدأ فى الهبوط وفى بطء ، وعندما وصلت الطائرة الى ارتفاع يسمح لنا برؤية واضحة لمعالم المنطقة ، **يقول لى السادات . .**

هنا يا « جعفر » هنا ، هذه هى المنطقة التى اخترتها لتكون ميناء السودان على البحر الأبيض ، ماذا نسميها ، السودان الجديد . .

ويواصل . .

الاختيار بالطبع مبدئى ، سأوفد وزير التعمير مع لجنة فنية لمعاينة المنطقة وتقديم تقرير مبدئى عن مدى صلاحيتها لاقامة الميناء ، ان صلحت فهذا ما تبغى وان لم يكن فبغيرها .

أتوقع يا جعفر وصول بعثه فنية من السودان وبسرعة ، ليشاركوا اخوانهم المصريين فى معاينة الموقع وتقرير مدى صلاحيته .

ثم أسمعه يردد وكانه يتغنى . .

لقد آن الأوان لأهلى فى السودان ليتحرروا من قبضة الميناء الواحد ، والأطلال على بحر واحد ، فليكن البحر الأبيض لنا ولهم ، كما ان البحر الأحمر لهم ولنا .

* * *

السادات والوقت مساء ، فى ليلة من ليالى شهر رمضان أيضا .

يستأذن (منصور حسن) ليدخل حيث نجلس يتقدم للرئيس السادات بورقة ، ويقدم لى نسخة منها ، مشروع البيان المشترك والمفترض إذاعته فى نهاية زيارتى لمصر بعد ساعات .

يفرغ (السادات) من قراءة مشروع البيان ، وينتظر حتى أفرغ .

واسمعه يقول :

ما رأيك يا جعفر ، هل أنت راضٍ عن مشروع البيان ، أنا لست راضيا عنه ، هو بيان تقليدى كذلك الذى يذاع فى نهاية الزيارات التقليدية بين رؤساء الدول الصديقة ، أما بالنسبة للسودان ومصر بالنسبة لى ولك فان الأمر يختلف ، ما بين الشعب الواحد فى مصر والسودان وما بينى وبينك ليس هو الصداقة ، هو الاخوة الحقيقية ، اخوة الدم والرحم الماضى والحاضر والمستقبل .

ويوافقه (منصور حسن) على ما يقول ، واوافقه أيضا .

وأراه ينظر الى (منصور حسن) ثم ينظر الى ويقول :

إن الذين صاغوا مشروع البيان معذورون بغير شك ، فهم لم يشاركونا جلساتنا الطويلة الممتعة ، والتى لم تكن يا جعفر جلسات محادثات بين رؤساء ، وانما كانت نجوى أشقاء .

ما رأيك يا جعفر فى أن نصيغ البيان أنا وأنت ، نحن نعرف ما دار بيننا ، ونحن نعرف ما نريد . . وأوافقه .

ويمسك قلما وينحنى على الأوراق التى تناثرت فوق مائدة صغيرة منخفضة ، ونبدأ فى طرح أفكارنا بصوت عالى ونناقشها معا قبل أن ينقلها إلى الورق .

وعندما نفرغ من صياغة البيان ، ويتسلمه (منصور حسن) والذى يخرج على الفور ، ينتبه السادات ويطلب عودته ومعه البيان مرة أخرى .

ويقول لى :

لقد نسينا يا (جعفر) نسينا ، لقد تحدثنا طويلا عن كسر حواجز الوهم بين أهلى وأهلك فى السودان ومصر ، ولقد اتفقنا على صياغة تشريعات تقرها المؤسسات الدستوريه فى البلدين حول حرية انتقال العمالة بين البلدين بغير قيود ، وحرية استثمار الأموال فى البلدين بدون عوائق ، وحق التملك المتكافىء لمواطنى البلدين كل فى بلد الأخر ، وأرى أن البيان فرصة لتسجيل ذلك ، على الأقل لندفع البيروقراطية السودانية والمصرية إلى التحرر من جمود الروتين فيما يتعلق بقضايا التكامل

يعود منصور حسن ومعه البيان ، يضيف إليه السادات ما يراه حقا لأهله فى مصر والسودان .

الفصل السابع

السادات .. موعد مع المجد

- من المجد إلى المجد ٦ اكتوبر ٧٣ ـ ٦ أكتوبر ١٩٨١
- في يوم الهول مجد انجازه
- كان مصرعه هزيمة للذين اختلفوا معه بقدر ماهو محنة بالنسبة للمصريين
- أخي أنور

لقد حققت مجدك ، وبلغت غاياتك ، وسبقت عصرك ، فما طالك ولن يطولك الزمن اللئيم

فى ذكرى مرور أربعين يوما على رحيله ، كنت مع حسنى مبارك وقوفا على قبره ، وبالرغم من يقينى أنه رحل ، إلا أن حضوره فى هذه اللحظات كان غلابا .

غير بعيد من القبر ، بل وفى مواجهته تماما منصة العرض العسكرى والذى كان فوقها موعده مع مجد الشهادة .

المنصة هذه المرة إستوعبت انتباهى ، أسئلتى الحائرة ، كل أسئلتى الحائرة وجدت لها إجابة وهى إجابة تؤكد بأن مجد الاستشهاد كان مطلبه بل وكأنه سعى إليه فى ذلك اليوم بتاريخه وميقاته .

فلقد اختار يومها ألا يكون هناك حراس حوله ، لا بالقرب منه ولا حتى فى الأطراف ، فهو فى حمى أعز أبنائه .

ولقد اختار يومها قاتله ، حين رفض وأصر على رفضه ، حين عرض عليه قبلها ابعاد الملازم خالد الاسلامبولى عن القوات المسلحه بشبهات تحوم حوله ، وأسرة لها تاريخها فى التطرف الدينى ، بل وشقيق جرى التحفظ عليه بعد أحداث الفتنة الطائفية ، إلا أنه رفض وأصر على الرفض ، مستشهدا بالآية الكريمة .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

رفض واستشهد بآيات الكتاب ، رغم أنه كان يعرف أن الشبهات تمتد من الأصول إلى الفروع خاصة فى الأجهزة والمرافق الحساسه .

ولقد اختار يومها قدره ، فلقد كان هو الذى طلب فى خطاب ٥ سبتمبر ، من هارب أن يثوب إلى رشده ، ولقد كان الهارب نفسه هو الذى شارك فى التخطيط للجريمة .

ولقد اختار قبلها مصيره ، فما طال من الفتنة جذورها ، وإنما سامح وتسامح وأعلن إنه يعطى الفرصة لمراجعة النفس والعودة للرشاد ، ولقد واجه الغدر أعزل .

فما كان وسط الملايين إلا فى حماها ، يطوف فى الدقهلية والقليوبيه والشرقية ، رغم أنها الفتنة يعرفها ، فضحها وعراها قبل جولته بأيام .

ولقد كان كل ذلك مجده ، وما المجد إلا جندى يسقط وهو يواجه الموت ولا يهرب منه .

رحل السادات ويبقى عصره . .

يتراجع الزمن ويبقى ، تتوالى العصور ويبقى ، تتداخل الأجيال ويبقى ، شاهدا على عصر ، بل علامة على عصر ، هو عصر السادات .

فمن غير السادات حارب فاستطاع بالممكن أن يقهر المستحيل .

ومن غير السادات بعد النصر تطلع إلى عدل السلام .

من غير السادات تجاوز الحاضر الى المستقبل فاستزرع الأرض ، واستصلح الصحراء ، وشاد المدائن وهو يدرك أن ثمار البذور لا يحصدها الا قادم الأجيال .

من غير السادات فرض نفسه على الدنيا ، فاذا الدنيا وكل من فيها حتى خصوم الأمس ، ينشدون وده ، ويطلبون صداقته ، يكبرونه حيا ، ويبكونه شهيدا .

من غير السادات قد استهلك أيامه كل أيامه لتتطابق المواقف مع المبادىء ، أبدا عنها لاتحيد .

من غير السادات ، صبيا يواجه امبراطورية ، شابا يواجه ملكا ودولة ، شيخا يواجه الدنيا فاذا الدنيا معه ، بعد أن كانت عليه .

من غير السادات حارب الحقد فى نفسه فما عرفه ولا اعترف به ، فكانت شرعته الحب له يدعو ، وبه يبشر .

من غير السادات تعالى على زائف الالقاب فما ارتضى أن يكون رئيس دولة ، ولا زعيم أمة ، وأنما رب أسرة هى مصر كلها ، وكبير عائلة هى مصر وشعبها .

من غير السادات حقق بموته مجد انجازه ، فاذا يوم الهول ، هو يوم السلاسة ، سلاسة انتقال السلطة بغير ارتباك .

دستور هو الحكم . .

مؤسسات هى السلطة . . لا تهتز لغياب فرد ولو كان بانيها وراعيها .

من غير السادات سقط لغير قضية ، فمن طالوه لم ينالوه لما

حقـق وأجمع شـعبه عليه ، ولم ينالوه لما أنجــز واختلف البعض حوله ، لم ينالوه لأنه عبر ، فما كان قتلته من الجانب الأخر شرق القناه .

ولم ينالوه لأنه انتصر ، لأن من غدروا به لاتهـــمهم قضــايا الحرب ولا قضايا السلام .

ولم ينالوه لأنه طلب سلما ونشد عدلا واختار للرخـاء مسـالك ودروبا .

ولهذا فإن مصرعه انما هو هزيمة للذين اختلفوا معه ، بقدر ماهو محنة بالنسبة للملايين ، وفى ذلك كله مجده . .

بل ولذلك كان رحيله موعدا مع المجــد وما المجــد الا جندى يسقط بين رفاقه وما المجد الا قائد يسـتشهد فى ذكرى انتصـاره . وما المجد الا مبادىء تصوغ المواقف .

ولقد كنت أخى أنور مبدأ دانت له المواقف . . . فما غبت رغم رحيلك ، ذلك أن المبادىء أبدا لا تموت .

ويا أخي أنور ..

لقد حققت مجدك ، وبلغت غايتك وسبقت عصرك ، فما طالك ولن يطولك الزمن اللئيم ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا

صدق الله العظيم

الملاحق

كلمة الى شعب مصر بعد غياب السادات

بسم الله الرحمن الرحيم

فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا

صدق الله العظيم

شعب مصر الوفى العظيم المعطاء ، لست فى اهلى وبين اهلى فى مصر ، الا صاحب جرح وشريك فجيعه ، فما جئت معزيا او مواسيا فى مصاب يعز فيه العزاء ، وانما انا اليوم معكم نستلهم الله صبرا فيما قضى وقدر ، نرتضى حكمه ونستلهم حكمته ، والتى شاءت الا تسقط البطل الا يوم مجده ، ليكون خالدا بما حققه حيا ، خالدا بما سقط دونه شهيدا ، ان تكون مصر الانتصار هى مصر الوحده ، مصر الاقتحام هى مصر التماسك .

لست فيكم ايها الاخوة الا صاحب فجيعه ، فما كان انور السادات الا منكم ومنا ، وما كان انور السادات الا لنا ولكم ، تمثلت فى عطائه كما تمثلت فى دمائه وحدة الوادى بمصره وسودانه ، وتعالى بالانتماء بل بالولاء الا ان يكون سودانيا فى مصر يقدر ماهو مصرى فى السودان ، ولئن كان الانتماء للاوطان ، هو العطاء فى ساعات المحن ، فمن اعطى لمصر فى ايام كبوتها ، بمثل ما اعطى انور السادات عبر العبور وعبور الهزيمة الى النصر فى اكتوبر ، ومن كان مع السودان فى كل ساعات المحن غيره ، ومن جسد بالسودان ومصر حقيقة الازل تعاون وتكامل ووحدة ، سوى محمد انور السادات .

انها ساعة للتأمل بقدر ما هى ساعة الفجيعة والمحنة والنكبة والمأساة ، فليس ذلك الذى نبكيه عابرا فى تاريخ امته ، ذلك ان العابر هو الذى يتجمد بالمجد عطاؤه ، بينما كان نهج الراحل العظيم ، هو اتصال العطاء حتى لو اختلف الناس فيه ، بتنوع العطاء حتى لو اجتهد الناس حوله ، بينما هو بالوفاء لشرف الهدف لا يراجع الا ضميره ، ولا يستفتى الا شعبه ، ولا يستلهم الا ما يرى انه الحق والصدق .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجدا حققه ، يوم استطاع ان يسد فراغا خلفه رحيل جمال عبد الناصر ، فما اهتزت مصر ولا تراجعت مكانتها فى الساحة العربية والدولية .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجدا حققه ، يوم استطاع ان يتحمل مسئولية تاريخيه ، تحمل بالشجاعة نتائجها دون اى محاولة للتنصل من تبعاتها ، فكان ان واصل الصمود رغم النكسة ، وكان ان واصل الردع رغم الهزيمة ، وكان ان وازن بين تبعات المجابهة وامكانيات المجابهة ، واستعان بالله وشعب مصر ، فحقق بتوفيق من الله وبسالة جيش مصر مجد العبور لوطنه وامته .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجدا حققه ، انه مجردا من كل قيد ، محررا من اى وصايه ، ان

يخوض لمصر وللامه العربيه أبسل المعارك ، لا يسانده الا شعبه ولا يؤازره بعد عون الله الا بسالة قوات مصر المسلحه .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجدا حققه ، انه كان الوفاء ، لاجيال تعيش واجيال بعدها ، فخاض معركة البناء مستشرفا مرافىء الوفره والرفاهيه ، لقد كان يكفى الراحل العظيم مجدا حققه ، انه اجتهد ولم يتجمد ، فطاف بصيغ للمارسه السياسيه سياجها القانون والدستور ، وكان احتكامه للشعب دائما والتزامه بالشعب ابدا .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجداً حققه ، انه استطاع ان يواجه بثقل وطنه استراتيجيات عظمى ، حاولت الاحتواء فرفض ، مارست الضغوط فصمد ، جربت الحصار والتطويق ، فإذا بها فى جزر العزلة معزولة الا عن الأذناب والعملاء .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجداً حققه ، انه استطاع ان يتجاوز من الزمن فعل الزمن ، فإذا به فى خريف العمر كما كان فى صدر الشباب ، الصاعد الصابر المثابر المناضل المقاتل من أجل شرف الحياة ، والذى كان عنده حرية الوطن وحرية المواطن ، أمن الوطن وأمن المواطن .

لقد كان يكفى الراحل العظيم مجداً حققه ، أنه حقق كل المجد منذ أن تحمل المسئولية إلى أن أنجز إعجاز العبور العظيم ، كان يكفيه أنه تجاوز الهزيمة الى النصر ، كان يكفى مجداً لمحمد أنور السادات ، أنه ورث النكسة وتجاوز النكسة ، تسلم الهزيمة ولم يرض بالهزيمة ، تراجعت حدود مصر قبله لتكون كلها فى أفريقيا ، حتى إتصلت حدودها بآسيا على الشاطىء الشرقى لقناة السويس ، كان يكفيه من ذلك مجداً يركن إليه ويكون هو الفخر كل الفخر فى سجلات التاريخ ، إلا أن إبن مصر العظيم بل إبن وادى النيل المناضل ، تجاوز ما حقق الى ما يجب أن يتحقق ، أن تتحرر الأرض كلها ، فحرية الأرض عنده كحرية الانسان لا تتجزأ ، ولقد إجتهد بقدر ما جاهد ، إلا أنه فى حدود ما إختاره كان باسلا وكان شجاعاً ، تحمل مالا يمكن أن يتحمله غيره ، وواجه ما لايمكن أن يواجهه سواه ، وارتضى ان يكون سيد قدره فيما قرره شعبه ، إلا أنه بديلا عن شعبه تحمل عنه مسئولية كل قرار .

أهلى وعشيرتى شعب مصر الوفى العظيم .

لأن كان هذا هو يوم حزن ويوم التضحية ، فهو أيضاً يوم العهد عهدى ، أمام الله وأمامكم ، أن أكون بشعب السودان معكم ، أن أكون بشعب السودان لكم ، نتماسك لتجاوز المحنة نتكاتف لنحقق ما ناضل من أجله الشهيد العظيم ، بأن يكون الامن والأمان لمصر والسودان ، وأن يكون الرخاء والتقدم بمصر والسودان .

أهلى وعشيرتى شعب مصر الوفى العظيم .

ليس لنا فى ساعات المحن إلا القبول بإرادة الله والتسليم ببالغ حكمته ، نسأله الصبر لما قدر ونسأله الرحمة لمن اختار الى جواره مع الصديقين والشهداء والأبرار وحسن أولئك رفيقاً .

الا رحم الله فقيد السودان ومصر ، ابن السودان ومصر ، والأمر لله من قبل ومن بعد وإنا إليه لراجعون .

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة أمام مجلس الشعب المصرى فى حفل أداء الرئيس حسنى مبارك القسم الدستورى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

صدق الله العظيم

الاخوة المواطنون أعضاء مجلس الشعب الموقر :

رحمةُ الله عليكم والسلامُ لكم ...

إننا فى رحاب الاحتفاء بتنصيب الخَلَف ، لن ننسى السلفَ ، والذى كان بالوفاء تجسيداً لِقيَمِ الوفاء ، آمن بها ودعا ، التزم بها وامْتَثَلَ فكان الوفاءُ هدفَ نضاله منذُ وَعَى شرفَ الانتماء الى أن نال شرف الاستشهاد ..

هو أنور السادات ، شقيقى وأخى ، القائد المعلم ، المقاتل الجسور ، المناضلُ الصامدُ ، المقتحم الشجاع ، الصابر على ما يكره لنفسه بلوغاً لما يحب لشعبه ، المدرك لمشاق دربه وصولًا الى ما يحب لأمته ..

القانعُ الذى لا يَقْنَعُ بأمجادٍ حققها ، ذلك أن المجد عنده ، هو للوطن والأمة ، للحاضر والمستقبل ..

هو أنور السادات ، شقيقى وأخى ، والذى كان بالبصيرة يدرك بأن التاريخ حركة لا تتوقف أمام ما كان ولو كان نصراً ، ولا تتجمد أمام ما كان ولو كان مجداً ، فكان فى ساحة الزمن يسابقُ الزمنَ ، يتعجلُ ولا يتمهلُ ، يبادر ولا يتوقفُ ، يقتحمُ ولا يترددُ .

هو أنور السادات ، شقيقى وأخى ، والذى كان طليعة فى جيلِ الطلائع ، ارتهن شَبابهُ ، وأعطى أيامه لشعبه ، وارتفى أن يكون العمر ... كل العمر .. مهراً للعدل والسلام والحرية ..

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى كان للحب داعياً وصانعاً ، وما الحب عنده ، الا العدلُ ولو كان الحربُ دربَهُ ، الا العدلُ ولو كان السلام طريقه ...

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى كان يؤمن بأن الحياةَ نَهْرٌ لا يتوقَفُ ، فما توقف بالعطاء لجيل يعيشُ ، وإنما العطاءَ لأجيالٍ ستعيش ، فما ارتضى لها الهزيمة فحارب ، ولا ارتضى لها الحاجَة فبنى ولا ارتضى لها الضياعَ للسلام وعمل للسلام ، على ان يكون السلام عدلًا ، وما العدل عنده الا سلاماً .

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى آمن بأن الأوطان أبقى من كل فرد ، وأن الشعوب أخلد من أى قيادة ، فما استهلَّ عهدَه بما يُمَكِّنُ لشخصه ، وإنما كان بالثورة فى ظلِ الثورة ، تقليصاً لسلطة

الفرد ، تأميناً لسلطة المؤسسات .. تجاوزا لسطوة الموقع ، تمكيناً لسيادةِ القانون .

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى آمن ان مصر قيادة وريادة ، إنما تتجاوز حدودها بمسئوليتها ، وتتعدى أرضها لما فُرِضَ عليها ، أن تكون للأمة العربية سنداً ، للقارة الأفريقية نصيراً ، للعدلِ والسلام فى العالم كلهٌ مساندة ودعماً .

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى مهد للسلام بالحرب ، ومهد للعدل بالنصر ، وقاد أُمَتَهُ من ظلام الهزيمة الى فجرِ الانتصار ، فإذا النكسة ذكرى ، والعبور خلود ..

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى آمن بأن عُمْقَ السودان هو كُلُ مصر ، وأن عمقَ مصر هو كُلُ السودان ، فما زايدَ على المشاعر بمشاعر ، ولا أضافَ الى الشعارِ شعاراً ، فإذا بوادى النيل وحْدَه ، وإذا أنا بينكم اليوم أخاطبكم كواحد منكم ، مُواطنٌ لمواطنين ... فلا أنا بالغريب الوافد ، وما أنتم إلا أهلى فى مصر وتوأمُ أهلكم فى السودان .

هو أنور السادات شقيقى وأخى ، والذى ما قَنَعَ بالمجد تصنعه حياته ، وإنما أضاف للمجد بدلالة إستشهاده ... فما عاش إلا لشعبه ، وما أستشهد إلا فى رحابه ، ولا ضحى إلا من أجله ، وما مات إلا فى سبيله .

فالمجد له حياً ، والخلودُ لذكراهُ شهيدا ، فما ودعناهُ إلا جسداً ، وما خَلَّدَ إلا عملًا صالحاً جزاؤه فى السماء عند رب السماء مغفرة ورحمة ، وجزاؤه فى التاريخ مجداً للتاريخ صَاغَهُ عطاؤه ..

الاخوة المواطنون .

أعضاء مجلس الشعب الموقر .

لَئِن كانت ساعات المحن هى ساعات الاختبار لأصالة الشعوب ، فلقد كان يوم رحيل الشهيد تأكيداً لأصالتكم ، فما كنتم الا أبناء وادى النيل أصحاب حضارة ، وصناع حضارة ، فما تداخلت أحزانكم مع عمق مسئولياتكم ، ولا حجبت دموعكم معالم طريق ، هو الأمن والأمان ، الذى بشر به لمصر ، وطالب به لمصر شهيد مصر العظيم .

واليوم وقد صَاغتْ بسالة التصدى إستقراراً لمصر ، يفتقده الشامتون والحاقدون ، فإن دوركم الحقيقى يكون قد بدأ لقد اجمعتم على خير خلف لخير سلف ، ولقد أقر شعب مصر إختياركم بإجماع ساحق ، لقد إخترتم .. واختارت مصر بطلًا لم يصادفه السادات إلا فى ساحات التحدى ، بطلًا فى الحرب والسلام ، بطلا فى معارك القتال ومعارك البناء ، بطلا عرف الدنيا وعرفته الدنيا ، وأشارت إليه بالتمجيد والتقدير والاعجاب ، فما حسنى مبارك إلا بطل حرب أكتوبر العظيم ، الذى خطط ونفذ ، الذى قاتل واقتحم ، والذى مهد للعبور ، وشارك فى صياغة نصر أكتوبر العظيم .

لقد كان حسنى مبارك بكفاءة مبارك بأمانة التكليف مخلصاً وقادراً على الوفاء بمسئولياته الى جانب القائد والزعيم .

وهكذا تداخل جيل يوليو مع جيل أكتوبر ، لتتصل مسيرة النصر فى تاريخ شعب مصروشعوب الأمة العربية .

هكذا تفاعل جيل يوليو مع جيل أكتوبر ، حتى تظل راية الثورة المجيدة فى حمى الخلود .

هكذا أراد الراحل الشهيد حين إختار حسنى مبارك رمزاً لجيل بأكمله ، وهكذا أجمع الشعب عليه ، تأكيداً للتواصل الخالد لمسيرة الأجيال ، تلك التى تصنع المجد بالثورة ، وتلك التى تحمى الثورة بالانتصار ...

الاخوة المواطنزن .

أعضاء مجلس الشعب الموقر .

ان مصر هى دائماً ، الحضارة والأصالة والعراقة ومجد التاريخ قدرها أن تلتهم ولا تستلهم الا تراثها وقيم شعبها النبيل .

هكذا صاغت مصر حضارة الانسان حين أرست قواعد أعرق وأقدم حضارة فى التاريخ .

هكذا حفظت مصر تراث الأجيال ، حين تصدت للزمن مما تراجع أمامه الزمن ، لتظل خالدة أهدافها خلود نيلها الذى يربط مصر بالسودان .

هكذا تعايشت الأديان بالمحبة فى مصر ، هكذا إنحسر الغزاة عنها منذ عهد أحمس إلى عهد السادات ، لتبقى مصر بالخلود رمزاً للخلود .

هكذا حافظت على العروبة ديناً وحضارة وثقافة ولغة ثم هكذا تواصلت مصر مع أمة العرب بالعطاء ، عطاء هو الدم قيادة لمعارك الأمة العربية ، منذ حطين إلى حرب أكتوبر .

عطاء هو العلم والثقافة لأمتها ، وهو البناء والتعمير فى أمتها ، وهو القيادة والريادة لأمتها ، فى كل المجالات والساحات .

عطاء هو صبر مصر على أمتها ، فما منت حين أخذوا ، ولا إرتدت حين هاجموا ، ولا كفرت بانتمائها اليهم .. حتى والشماتة فى أحزانها تضيف حزناً إلى الأحزان .

عطاء يفرض على مصر قدر مصر ، حيث القيادة لها لا يصوغها المال ولا يصوغها الثراء ، هو تاريخ مصر وحجمها ، هو عطاء مصر وتضحياتها ، هو دور مصر فى حاضرها ومستقبلها ، ولهذا فإن مصر فى عهد حسنى كما فى عهد أنور وعهد جمال ، إنما ستكون فى قمم العطاء ، لن تنحدر بالحقد حتى أمام الشماتة فى ساعة الأحزان ، لن تنزلق أمام الصغائر فهى أكبر ، لن تنفعل أمام الأحقاد فهى أعظم ، ولسوف تواصل مصر نضالها من أجل عدل السلام ، لها ولأمة ما كانت إلا لها ، ولن تكون إلا معها ، فمصر هى قدرة الحرب وهى ضمانة السلام ، مصر هى العطاء وهى الرخاء ، مصر هى السواعد تبنى ، والأرواح تفتدى ، والنصر تصنع ، والسلام تفرض ، مصر التى كانت والتى ستكون ، مصر حسنى كما كانت مصر السادات ، دعامة الأمن وركيزة الاستقرار للعرب ، كل العرب .. من المحيط إلى الخليج .

الأخوة المواطنون

اعضاء مجلس الشعب الموقر

لن اقول لكم مبارك .. بمبارك ، وذلك أننا فى ساحة الاحزان ، مازلنا ، ومازال الجرح نازفا ومازالت

الدموع مل ء العيون .

ولكنه العهد أقطعه ، لمبارك أخى وشقيقى ، كما كان أنور شقيقى وأخى ، أن أكون له وأن أكون به ، تحقيقا لما آمن به السادات ، استكمالا لما بدأه ، أن تكون مصر بالسودان قوة ، وأن يكون السودان بمصر قدرة ، امنا لا يتجزأ ، وطريقا لا يتفرق ، وعملا لا يتوقف ، من أجل رخاء مصر والسودان ، وحرية مصر والسودان ، وسيادة مصر والسودان .

نناضل معا .. قلبا واحدا .. ويدا واحدة ، من أجل شعب واحد ومستقبل واحد ، ومصير واحد لشعب وادى النيل .

عهد اقطعه ، وقسم لا احنث به ، ان اواصل مع حسنى ، ما بدأته مع السادات ، على درب واحد ، ولهدف واحد ، هو عزة ورخاء وتقدم شعب وادى النيل فى مصر والسودان .. والله على ما اقول شهيد .

الاخوة المواطنون

اعضاء مجلس الشعب الموقر

التحية لكم .. والمجد بكم ، والامن والأمان لمسيرة مصر وشعب مصر ، لهذا ناضل السادات وضحى ، وهكذا يواصل حسنى مبارك مسيرة العطاء .

ولله ما أخذ ، والحمد لله فيما اعطى ،

وما التوفيق الا من عند الله ..

والسلام عليكم ورحمة الله .

أربعون يوماً على درب الخلود

كما لا يقاس بالسنين عمر الامم ، فليس بالأيام قد امتد غيابك .

فما غبت اخى انور .

فمصرك باقية ، تواصل دورها ، تؤدى رسالتها ، أمن أردته ، وأمان عشت له ، وسلام تطلعت بالحرب والسلم اليه .

ما غبت اخى انور

فمصرك خالدة ، أقوى من المحن ، واكبر من النازلات ، فهى كنيلنا الخالد لا يغير مجراه قاتم الليل ، ففجره قادم وصبحه على الابواب .

ما غبت اخى انور

فمصرك صامدة ، تعبرها النوازل ولا تستقر على ابوابها النكبات .

ما غبت اخى انور

فمصرك رائدة ، ما أخذ منها الزمان وانما هى عطاء للزمان ، عطاء حضارة وعطاء أصالة وعطاء تراث .

ما غبت اخى انور

فمصرك ثابتة ، هى الصمود للمحنة ، هى البسالة فى التصدى ، هى السباقة للأمجاد ، هى الصانعة للنصر ، هى القادرة على مغالبة التحدى ، هى الصامدة حين يعز على الدنيا الصمود .

ما غبت اخى انور

فمصرك باقية ، هى فى القلوب ولاء بنيها ، هى فى العقول درة الدنيا ، هى فى الضمائر ضمير من صالحها ومن خاصمها ومن أحبها ومن عاداها .

ما غبت اخى انور

فما كنت لمصر وحدها حتى يغيبك ظلام ثراها ، وانما كنت بمصر للانسان فى كل ارض وزمان ، للانسان يرفض الظلم ويطلب العدل حريا وسلما ، للانسان يطلب الكفاية جهدا وعرقا ، للانسان ينشد الكرامة فلا تكون الا له ولا تكون الا به .

ما غبت اخى انور

فما كان عطاء غروبك سوى امتداد لعطاء فى مطلع عمرك ، بل كان العطاء هو عمرك ، ما عرفت الطفولة الا معاناة أهلك ، وما عرفت الشباب الا معاناة وطنك ، وما عرفت تقدم العمر ابدا ، فما الشباب الا عطاء يتصل ولقد اعطيت فى كل حياتك كل حياتك ، وحتى لحظة استشهادك .

ما غبت اخى انور

فلا يغيب من كانت ايامه كل ايامه بصمات فى تاريخ وطنه ، تعاليت على حق نفسك واشتريت

بالعمر حقوق ، فانت فى السجن صبيا او يكاد ، وانت فى القيد اسير القهر طريد القهر شابا لا يكاد ، وانت فى اواسط العمر صوتا لمصر تنبهت له الدنيا بانها على موعد مع يقظة المارد وعودة العملاق ، فكنت صوت ثورة يوليو يوم تفجرت ، وكنت صوت مصر يوم من الملكية الأجيرة تطهرت ، وكنت رمز مصر كبرياء القادر وعزة المنتصر ، فما اغرتك قوة فى يوم النصر فودعت من كان رمزا للفساد فى بلادك ، وما اغرك به ضعفه فما كنت فى مواقع الشامتين يوم سقطته .

ولقد كنت ناصراً لناصر

ما خالفته وان اختلفت معه ، وانما احسنت النصح له ، كنت له السند والنصير وخاصة فى ساعات المحن ، فما افتقدك الا وجدك وما استنصرك الا نصرته ، وما تلفت حوله الا كنت له قبل ان تكون معه ، هكذا كنت فى ايام مجده وفى مجد صموده .

فى يوم الحزن صبح الانفصال ، يوم كان عقله مع حتمية الانتصار للوحدة ، وكان قلبه على مضاعفات يأباها لاهله فى سوريا .

فى يوم الكبوة فى يونيو (حزيران) ، فما تلفت يبحث عن الصامدين حتى وجدك ، بينما الكل حوله ، اما مع مهزوم حتى قبل اعلان الهزيمة ، واما شامت يدارى شماتته بادعاء الاشفاق .

هكذا وجدك يوم تحدث مصر الهزيمة فتمسكت بقائدها ، فكان المجد يوم التاسع من يونيو لشعب مصر فى كل مصر ، وكان المجد لشعب مصر يوم العاشر من يونيو فى مجلس الامة ، حيث كنت بشير الشعب ببقاء القائد ، رمزا لصمود شعب ووطن ورمزا لاصرار وطن وشعب على تجاوز النكسة وحتمية عبور الهزيمة .

كنت أخى انور آخر من تبقى ولهذا كنت وبكل المقاييس أوفى من تبقى .

سطعت عليك اضواء ما اخفيتها ، وسعت اليك مسئوليات ما تنصلت عنها وان تعففت عن اعلانها ، فكنت لناصراً ناصر مرة أخرى ساعده ومساعده ، أيام حرب الاستنزاف المجيدة ، ايام عبور الطلائع من جيش مصر الى سيناء المحتلة ، ايام كانت سموات مصر مفتوحة امام عدو لا يفرق فى أهدافه بين مدرسة تضم اطفالا فى بحر البقر ، ومصنعا يضم عمالا فى أبى زعبل الى ان استكمل ناصر لجهده وجهدك ودماء شهيد مصر العظيم عبد المنعم رياض ، دفاعات مصر عن ارضها وسمواتها .

وقد كنت ناصرا لناصر

وهو يخوض اشقى معاركه ويعيش اتعس أيامه ، يوم واجه الصديق رغم محبته ذلك ان الحب عند ناصر وعندك ، هو مصر أولا ومصر ثانيا ومصر أخيرا .

لقد كنت ناصرا لاهداف ناصر ومبادئه يوم أراد الله ان يسترد وديعته .

فما جعلت من الثورية وراثة حتى لنفسك ولا أردت للشرعية ان تكون شكلا بغير مضمون ، ولا قبلت ان تكون الناصرية كهنوتا له شراح وكهان وأصحاب مصلحة .

وانما الناصرية ، ومن عرف ناصر مثلك . . ؟

هى تحرير الارادة تمهيدا لتحرير الارض .

فكانت مايو ثورتك ، وكان اكتوبر عيد وطنك وأمتك ويوما صادفه استشهادك ، فاى مجد يا أخ العمر وشقيق النضال .

ما غبت اخى انور

والعالم فى دوار الحزن يفتقد بك شجاعة فى الحرب وشجاعة فى السعى لعدل السلام .

ما غبت أخى أنور

وأمتك العربية ، رغم اختلاف رأى وخلافات اجتهاد ، لا تذكر نصرها الكبير الا يوم عبورك ، ولا تتذكر طفرتها من حاجة رغم قدرة ، الى ثروة فى ظل قدرة الا بفضل اسهامك .

ما غبت أخى أنور

والدنيا كل الدنيا ، تابعت عطاك على طريق المخاطر يوم كانت قناعتك صدى لقناعات شعبك ، يوم كانت خطاك مدفوعة بارادة مواطنيك ، يوم اختيارك درب المخاطر ، باجماع شعب وتأييد شعب ، ومباركة شعب ، قال لك نعم ثم نعم .

ما غبت أخى أنور

ولقد كاد الزمان أن يتحدى دورة الزمان لحظة استشهادك ، فما أجمعت الدنيا على جزع الا لحظة اصابتك ، وما تجمعت الدنيا على حزن الا ساعة تأكد رحيلك ، وما كان خلف آخر مواكبك سوى الدنيا ، ولا أعنى بالدنيا رموز وقيادات وزعامات ، وانما أقصد بها دنيا الانسان الولوع بالعدل والحرية ، يطلبها حربا وينشدها سلاما .

ما غبت أخى أنور

فلا يغيب الا ذلك الذى ينفرد به القبر ولا يرافقه الا الظلام . أما أنت فلقد كان انجازك شعلة لمسيرة تتصل وموكب لا يتوقف ، وايقاع حياة يتحدى اعداء الحياة .

ما غبت أخى أنور

فمؤسسات وضعت أسمها ، ودستور قدست نصوصه ، وشعب آمنت به ، انما كان ذلك كله امتدادا واتصالا لمسيرتك .

مؤسسات أخى انور ما جزعت فى ساعة الجزع ، ما فزعت ولا سمحت لدموع الاحزان ان تكون ضباباً يحجب رؤيتها ، ليتجمد ساعة الهول فلا تبصر فى الحاضر الا الماضى ، وانما اندفعت على طريق المستقبل .

ما غبت أى أنور

فلقد شهدت لك الدنيا حيا وشهيدا يوم ورثت الشرعية الشرعية فى أقل من ساعة .

يوم اتصلت المسيرة دون لحظة توقف يوم كان الدستور حكما وحكما وعقلا مرشدا ، فى لحظات يفترض فيها غياب العقل والحكمة والرشاد .

ما غبت أخى أنور

فما زال نيلك يتصل بالحب جنوبه بشماله تأكدت بالاحزان يوم رحيلك وحدته ، تجددت على

العهد رغم رحيلك وحدة مسيرته ، تكاملا فوحدة بل وحدة فتكامل .

ما غبت أخى أنور

فما يغيب الا العابر وانت الخالد بانجازك وعملك ، باسهامك وجهدك بدمك وحياتك .

فلتهنأ أخى انور مع الصديقين والشهداء .

أخوك/جعفر محمد نميرى

١٤/١١/١٩٨١

السادات : قائداً وشهيداً

لعل اختلاف السادات عن غيره من قيادات العالم السياسية ، وربما يكون الأصل فى خلافه مع بعضهم ، انه على القرب كما هو على البعد ، نفس الرجل ، لا يمارس فى السر ما يخفيه فى العلن ، لا يبطن غير ما يعلن ، لا يقول الا بما يؤمن ، لا يتستر حتى بدبلوماسية الكلمات وهو يحدد الهدف والوسيلة .

لقد كان السادات رائد مدرسة الوضوح السياسى ، وهى مدرسة لم يألفها العالم وخاصة العالم الثالث ، ولذلك فلقد شاع عنه انه صاحب الوضوح والتى تكاد تنعدم فيها المسافة الفاصلة بين الوسيلة والهدف ، فما تستر على هدفه الا بالوضوح ، ولا استعان على تحقيقه الا بالعلانية التى تجرده من احتمالات التأويل والاجتهاد .

ولم يكن السادات فى ذلك الا السادات نفسه .

شابا على اعتاب الوعى السياسى ، ومناضلا من اجل تحرير مصر ، وعضوا مؤسسا لتنظيم الضباط الاحرار ، وعضوا فى مجلس قيادة الثورة ، ونائبا لرئيس الجمهورية ، لقد كان السادات عبر كل هذه المراحل هو السادات نفسه .

لم يتستر الا بالوضوح وهو يناضل فى العلن لا فى الخفاء ، فكان التشريد والاضطهاد وشهور السجن الطويلة .

لم يتستر الا بالوضوح يوم تفجرت الثورة ، ثورة ٢٣ يوليو العظيمة ، فكان صوته هو اول الاصوات التى نقلت للعالم مولد الثورة المجيدة .

لم يتستر الا بالوضوح عبر مراحل العمل السياسى بقيادة جمال عبد الناصر ، فظل فى دائرة الوضوح كاتبا وصحفيا ووكيلا لمجلس الأمة ثم رئيسا لمجلس الأمة ، وكلها مواقع لا تفترض الوضوح وانما تفرض الوضوح على من يشغله .

لم يتستر الا بالوضوح يوم تحمل مسئولية توهم العالم لبعض الوقت انها تتطلب قدرات تفوق قدراته .

فلقد كان خلفا لقيادة عملاقة تمثلت فى عبد الناصر بتاثيره الصادق مصريا وعربيا وعالميا ، ثم انه تحمل عن عبد الناصر مسئولية تحرير الارادة من اثار النكسة ، والتى كانت خطوة اهم واخطر حتى من تحرير الارض ، لانها كانت الوسيلة الوحيدة لتحرير الارض .

ثم انه تحمل عن عبد الناصر مسئولية تقنين السلطة ، والتى كان يجب الانتقال بها من مرحلة كانت الشرعية فيها للثورة ، الى مرحلة تكون الشرعية فيها هى المؤسسات .

ثم انه تحمل من عبد الناصر مسئولية إستكمال البناء ، بل انه تحمل من عبد الناصر مسئولية جديدة للبناء ، وفى ظل ظروف ضاغطة .

هى ظروف التأهب للمعركة ، وهى ظروف ما بعد المعركة ، وهى ظروف النمو الاجتماعى الهائل والذى كان يسابق النمو السكانى الكبير ، وهى ظروف إزدواج الجهد لبناء قواعد الانتاج ووفرة الانتاج .

ولقد كانت هذه الأهداف متتابعة بالوضوح فيما أعلنه السادات منذ تولى مسئولية قيادة الأمة ، وهو وضوح بلغ الوضوح فيه حد الشك فى إمكانية تحقيق ما أعلن .

فمن ذا الذى لم تساوره الشكوك عن إمكانية الحرب ، والسادات يعلن عن حتمية المعركة ، ومن ذا الذى لم يعايش الشكوك والسادات يبشر بدولة المؤسسات ، ومن ذا الذى ظن ان القول غير الفعل . والسادات يؤكد أنه يخطط لمعركة تحقيق الرخاء ، ولقد تشكك الكل لأن الجميع كانوا قد أدمنوا التعامل مع الوعد كنقيض للوفاء به ، بينما أثبت السادات للكل أنه هو الوفاء .

هكذا توهمت الدنيا أن لا حرب ولا سلام فى المنطقة ، حتى أفاقت على دوى المدافع يوم ٦ أكتوبر المجيد ، هكذا تخيل البعض أمل الرخاء سراباً ، حتى عاشوا مصر العريقة جديدة بما أضاف اليها من شوامخ البناء ، ولقد كانت آخر أيامه رحمه الله هى أمجد أيامه ، فلقد كان فيها طواقاً بأرض مصر وعطاء مع شعب مصر ، وهو يفتتح مصنعاً للسماد فى طلخا ، ومشروعات الامن الغذائى فى كل مكان .

ولقد تعامل البعض مع شعار رفعه السادات حول قيام دولة المؤسسات ، كأمل من الممكن أن يكون وليس كحقيقة وهى حقيقة فرضت نفسها يوم إستشهاده ، فلولا المؤسسات التى حرص على إقامتها أنور السادات ، لما توقفت الدنيا بالاعجاب والدهشة لبساطة وكفاءة إنتقال السلطة بعد ساعة واحدة من رحيله .

ولعل الأقربين منه هم خير شهود على حرصه أن تقوم المؤسسات بدورها .

فما انفرد رحمه الله بقرار ، وإنما كان رأيه يأتى تالياً وليس سابقاً فيما يعرضه على المؤسسات فى تجرد يفوق حتى الحياد فى حياده ، وإذا تدخل فإنما ليوضح ، وإذا أضاف فإنما ليضيف ، ليس توجيهاً لاتجاهات المناقشة وإنما حرصاً على شمولها لكل الجوانب والأبعاد .

ولعل الأقربين منه رحمه الله ، بل ويشهدون عليه ، بأنه كان قبل إتخاذ القرار يراجع الكل فيما أقروا ، بما يؤكد إطمئنانه لما وصلوا إليه .

ولقد كان وضوحه هو شجاعته ، ولقد كانت شجاعته مدخلا لمتاعب ما كان أغناه منها ، لو ألبس الحقيقة أثواباً تخفيها ، إلا أن إيمانه بأن الهدف المستقيم إنما الطريق إليه هو الخط المستقيم ، كان يصدم على الدوام من أدمنوا الالتفاف حول الهدف ، والتستر على الحق والحقيقة بزائف الكلمات .

كان السادات رجل القلب المفتوح والعقل المفتوح ، ما حمله قلبه كان على الدوام على طرف لسانه ، يواجه ولا يناور ، يقتحم ولا يتسلل .. ينفذ الى ما يريد بأبسط العبارات وبأقرب الطرق .

كان السادات هو الحنان لا شيء غيره ..

كان بره باسرته هو نفسه بره بشعبه ، حرصه على أمته ، كان رب الأسرة الصغيرة هو نفسه رب العائلة الكبيرة . كان تعامله فى غابة السياسة محكوماً بقيم الفارس النبيل ، الذى يؤمن أن شرف الهدف من شرف الوسيلة ، وأن الالتزام صمود ، وأن المسئولية أمانة ، ولقد أداها وسقط دونها واقفاً كفارس نبيل علامة على عصر نبيل ، هو عصر السادات .. هذا هو السادات قائداً ، فماذا عن السادات شهيداً ..

هو هذا كله ، ناضل من أجل ما آمن به ، واستشهد فى سبيله ، غايته تحرير وطنه وأمته ، هدفه رخاء شعبه ومواطنيه ، فله الرحمة ولنا فى تراثه المجيد العزاء .

صديقك وأخوك المكلوم

جعفر محمد نميرى

١٩٨١/١٠/١١

بيان رئاسة الجمهورية السودانية حول اتفاقية كامب دايفيــــد

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نظر السودان فى وثائق كامب ديفيد على ضوء الاعتبارات الاساسية التالية :

أولا : ان ثمة علاقات خاصة ومتميزة تربط بين شعب وادى النيل تستمد عمقها وأبعادها من روابط التاريخ ، ومن المصالح الحيوية المشتركة بين البلدين ، ولا يملك السودان ولا تملك مصر حق المجازفة بهذه العملية المتينة أو السماح لأى طارىء لينال مما خطته يد التاريخ وواجهته مصالح المصير . وأن روابط السودان التاريخية بمصر تحتم عليه أن يتفهم تماماً مواقف مصر فى الساعات الحرجة وفى أوقات الخيارات الصعبة القاسية .

ثانياً : ان السودان بغير انتقاص من دور الدول العربية الشقيقة الأخرى يقدر تماماً التضحيات الهائلة والأعباء الجسام التى تحملها شعب مصر وجيش مصر لنصرة العرب ، ولا يرى السودان أى حكمه فى الدعوة لمقاطعة وعزل واستبعاد مصر . ولن يترتب على هذه الدعوة سوى المزيد من الشقاق فى الأمة العربية . ولا يجوز خلخلة القضية العربية باغتبارات الخلافات العقائدية ومضاعفات الصراع بين الدول الكبرى والمنازعات الاقليمية الثانوية .

ثالثاً : ان السودان يؤيد تماماً المساعى المبذولة لحل النزاع فى الشرق الأوسط بالوسائل السلمية وبالمفاوضات المباشرة بين الأطراف المعنية وعلى أساس قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ .

ولا شك فى ان مساعى السلام تتبين أكثر إيجابية وفعالية إذا شاركت فيها الأطراف العربية بأسلوب جماعى وفى نطاق الوفاق والتضامن العربى الا أن تعقيدات الموقف العربى خيبت هذا الأمل حتى هذه اللحظة .

وعلى ضوء الاعتبارات السابقة فإننا لا نرى من حقنا أن ننقد مصر فى جهدها للتوصل لاتفاقيات سلام تؤدى الى إنسحاب القوات الاسرائيلية الى حدود مصر التاريخية والدولية ، والى تصفية المستوطنات الاسرائيلية فى سيناء فى نطاق ترتيبات لضمان الامن والسلام وفى إطار مبادىء عامة لتسوية شاملة فى المنطقة .

وإننا ندرك ان التسوية بالوسائل السلمية عملية صعبة وقاسية بطبيعتها . وبالنظر الى تعقيدات المواقف الناتجة عن أربع حروب فى المنطقة خلال ثلاثين عاماً فإنه من غير المعقول أن يتم التوصل الى حلول نهائية وشاملة لكافة أوجه النزاع فى وقت واحد . ولا مفر فى البداية من تحديد معالم للاطار العام للتسوية . ولقد لاحظنا أن معالم الاطار العام التى تم التوصل اليها فى كامب ديفيد قد صاحبها الغموض والابهام والاغفال عن المسائل الجوهرية ، مما أدى الى إرجاء التوصل لحلول واضحة بشأنها الى مراحل لاحقة وعلى ذلك فإن الوصول لتسوية نهائية وشاملة وعادلة فى المنطقة يتوقف على التوصل الى حل عادل فى المسائل التى تم إغفالها فى الوقت الحاضر كقضية القدس ، أو التى أرجئت للمفاوضات

اللاحقة كالسيادة على الضفة الغربية وغزة ومستقبل المستوطنات الاسرائيلية فيهما ، أو التى تمت صياغتها بغموض وابهام كقضية اللاجئين من شعب فلسطين .

وإذا كان لخطوات السلام أن تنجح فلابد من تقديم الايضاحات الكافية حول هذه المسائل لاقناع الأطراف الأخرى بالمشاركة فى عملية بناء السلام والتوصل الى تسوية شاملة ونهائية .

وبالرغم من الغموض والاغفال الذى يكسف عن التصلب الاسرائيلى فإنه جدير بالملاحظة ما نص عليه فى إتفاقية كامب ديفيد للإطار العام للتسوية السلمية من أن المفاوضات ينبغى ان ترتكز على جميع نصوص ومبادىء قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وعلى وجوب أن يعترف الحل المتوفر نتيجة للمفاوضات بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى ومتطلباته العادلة ، وهما الركيزتان الأساسيتان لأى تسوية سلمية شاملة فى المنطقة وهو ما كانت تقابله إسرائيل دائماً بالرفض الصريح .

وإن الولايات المتحدة الأمريكية التى تحملت عبء مسئولية المشاركة فى تحديد المعالم العامة لاطار التسوية بقى عليها عبء المسئولية الأكبر فى المشاركة فى تسوية المسائل التى أغفلت أو أرجئت أو يشوبها الابهام على ضوء هذا النص الهام .

ان السودان ليعلن مجدداً بأن التضامن العربى والعمل العربى المشترك يشكلان الركيزة الجوهرية لحماية المصالح الحيوية العربية ولبناء السلام العادل فى المنطقة . وان السودان سيتحمل مسئوليته كاملة فى هذا الشأن .

البيان المشترك بين السادات ونميرى
٢٨ / ٧ / ١٩٨١

تلبية لدعوة من الرئيس محمد أنور السادات قام فخامة الرئيس جعفر محمد نميرى رئيس جمهورية السودان الديمقراطية بزيارة لجمهورية مصر العربية فى الفترة من ٢٠ الى ٢٧ يوليو ٨١ وذلك فى اطار التشاور المستمر بين الرئيسين وحرصهما على تعزيز علاقات التعاون والتكامل بين البلدين فى جميع الميادين انطلاقا من وحدة الهدف والمصير وتطابق المصالح الاستراتيجية للشعبين والمسئولية القومية التى يتحملانها ، وقد أجرى الرئيسان مباحثات مكثفة طوال الزيارة تناولت القضايا العربية والافريقية والدولية الهامة وسبل دفع عجلة التكامل بين البلدين بما يقابل آمال جماهير شعب وادى النيل وتطلعاتهم الى تلاحم كامل يتفق مع الوشائج الخاصة التى تربط بينهما فى التضامن العربى يؤكد البلدان مرة أخرى على أهمية التضامن العربى باعتباره الوسيلة الوحيدة المتاحة لتأمين الأمة العربية ضد المحاولات الرامية لتفتيت الكيانات العربية على أسس عرقية وعنصرية واقليمية ودينية بالاضافة الى دوره الاهم فى حشد الطاقات والامكانيات لتحقيق أهداف الامة العربية فى التحرر والسيادة والامن ثم باعباره الركيزة لتحقيق أهداف الامة العربية فى التنمية والوحدة كما يؤكد البلدان موقعهما وموقفهما فى ساحة النضال العربى شركاء فى معركة المصير من أجل تحرير كل شبر من الأرض المحتلة بما فى ذلك القدس وتأمين حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره واقامة دولته فوق ترابه الوطنى ضمن حدود أمنه ومعترف بها من كافة الاطراف فى المنطقة ويؤكد الحانبان مرة أخرى ادانتهما للمارسات الخاطئة العدوانية فى لبنان الشقيق والمغامرات السورية غير المسئولة ، ورحب الرئيسان بالاتفاق الذى تم التوقيع عليه لوقف اطلاق النار فى لبنان وأكدا ضرورة احترام سيادة لبنان وحقوق شعبه وأولها حقه فى الحياة الأمنية والوقوف ضد العدوان والتدخل الاجنبى بكل صوره وأشكاله . فى القارة الافريقية يؤكد البلدان انهما بحكم امتدادهما الجذرى داخل القارة الافريقية وبحكم ارتباطهما المصيرى بحاضر ومستقبل القارة أنهما سيواصلان العمل من أجل تحقيق التضامن الافريقى والوحدة الافريقية باذلين كل جهد ممكن من أجل ازالة بؤر التوتر والصراع داخل القارة وسيوظفان فى هذا السبيل مساعيهما الحميدة ليكون الحوار بديلا للصراع بحيث يستوعب مختلف المشاكل والخلافات وخاصة فى منطقة القرن الافريقى كما يؤكد البلدان رفضهما وشجبهما وادانتهما لمحاولات التدخل فى شئون الدول الافريقية من داخل القارة أو خارجها وذلك من منطلق الايمان بحق شعب القارة الافريقية فى حل مشاكلها دون تدخل أو وصاية أو قهر ومهما كانت مبرراته وفى هذا الاطار فهما يعلنان مجددا ادانة الاستعمار الليبى للشقيقة تشاد وبضمان صوتهما لصوت الاجماع الافريقى المطالب بالانسحاب الليبى من تشاد وكذلك النفوذ الاجنبى الذى يتستر به كما يؤكدان مرة أخرى موقفهما المعلن فى قمة نيروبى الافريقية مع الاجماع الافريقى الرافض لانعقاد مؤتمر القمة الافريقى فى طرابلس ايمانا منهما بأن انعقاد مثل هذا المؤتمر فى العاصمة الليبية لا يمكن أن بتوفر له الأمن والأمان بالاضافة الى تناقض الدور التخريبى الذى تمارسه السلطة الليبية فى أفريقيا مع شرف انعقاد المؤتمر فى أراضيها ويدعو الرئيسان الى وجوب احترام حق شعب ناميبيا بقيادة سوابو فى الحصول على استقلالها التام طبقا لقرار مجلس الأمن رقم ٤٣٥ ويطالبان جميع الدول التى تتحمل مسئولية خاصة فى هذا الصدد وبخاصة الولايات المتحدة بالقيام بدورها كاملا حتى تذعن الحكومة العنصرية فى جنوب افريقيا للاجماع

الدولى . وفى اطار التزام البلدين بميثاق منظمة الوحدة الافريقية ومقررات القمة وخاصة قمة لاغوس الاقتصادية فقد أكد مشاركتهما فى التجمعات الافريقية الاقتصادية ودعم التعاون بين الاقطار الافريقية المتجاورة وذات المصالح الاقتصادية المشتركة وفى اطار هذا النهج دعا الرئيسان لعقد أول مؤتمر قمة لدول حوض النيل لتحقيق الاستفادة القصوى من إيراد النهر وتنظيم محابسة واستثمار إمكانياته لمصلحة كل الأطراف وقد عبر السودان عن تقديره بالدور الذى تقوم به جمهورية مصر العربية فى دعم الدول الأفريقية وذلك لانشائها مصارف متخصصة للتنمية فى أفريقيا ، فى الساحة الدولية أكد البلدان وقوفهما مع المبادىء الحقيقية لحركة عدم الانحياز وأدانا محاولات الاحتواء الايديولوجى والسيطرة السياسية ، وأكدا رفضهما لسياسة الأحلاف وإقامة القواعد العسكرية وأعلنا عن مواصلة سعيهما لتحييد الممرات المائية الدولية وإبعادها عن دائرة الصراع الدولى وفى هذا الاطار أيضاً كررا شجبهما وإدانتهما للتدخل العسكرى السوفييتى فى أفغانستان المسلمة ، وأكد البلدان عن عميق القناعة والايمان بأن قضية الأمن فى البلدين لا تتجزأ وأن تداخل العمق المصرى والسودانى الى جانب حقيقته الجغرافية فهو حقيقة تاريخية أكدتها وقائع الأحداث فى الماضى والحاضر ولهذا فقد أكد البلدان التزامهما باتفاقية الدفاع المشترك وعقدا العزم على توسيع مجالات التعاون العسكرى فى كل المجالات بما فى ذلك توزيع القوات واستخدام القوات العسكرية فى البلدين فى حالات الضرورة بالاضافة الى تبادل المعلومات والقدرة والتدريب والمشاركة فى مختلف المستويات والتخصصات العسكرية . وفى مجال التكامل الاقتصادى راجع الجانبان الخطوات التى تمت منذ إعلان منهاج التكامل بين البلدين فى فبراير ١٩٧٤ وعبرا عن رضائهما عن النتائج التى تم التوصل اليها حتى الان باعتبارها خطوات تمهيدية للتكامل الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الشامل الذى يجسد الوحدة الحتميه بين البلدين . وفى هذا الاطار كانت النتيجة العظيمة التى تمت خلال زيارة العمل التى قام بها الرئيس جعفر محمد نميرى الى الاسكندرية حيث تحدد موقع السودان الجديد على ساحل البحر المتوسط تأكيدا لامتداد السودان فى عمق مصر وفى أقصى شمالها وشرقها وغربها وبالقدر الذى يتأكد فيه امتداد مصر فى عمق السودان فى أقصى جنوبه وغربه وشرقه وبالرغم من ايمان الجانبان باهمية هذه الخطوة من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية الا انهما ينظران اليها كبداية فى طريق تحقيق التكامل بين البلدين وعلى طريق تأكيد وتوسيع قاعدة التعاون فقد وافق الجانبان على الشروع فى اقامة الطرق البحرية والنهرية والحديدية التى تربط البلدين وتوفير مشاريع الامن الغذائى المطلوب للبلدين بامكانيات البلدين وفى اطار تتويج مواردهما بالاضافة الى اعادة الحياة الى مناطق التداخل البشرى السودانى والمصرى فى النوبه والبحر الاحمر وتأكيدا لهذا النهج والتزاما به فلقد تقرر أن يكون لمواطنى البلدين حق التملك فى البلد الاخر بالاضافة الى حرية انتقال العماله ورؤوس الاموال وحق الأستثمار وذلك مع كل الضمانات التى يتمتع بها رأس المال الوطنى فى كل منهما وبغير تمييز ولسوف تصدر التشريعات التى تقنن هذه القرارات فى كل من البلدين فى اقرب وقت ممكن .

نص الخطاب الذى القاه السيد الرئيس القائد جعفر محمد نميرى فى الاجتماع المشترك للمكتب السياسى ومجلس الوزراء فى العاشرة من صباح اليوم برئاسة مجلس الوزراء والذى تناول فيه سيادته نتائج زيارته الاخيرة لجمهورية مصر العربية والمباحثات التى اجراها سيادته مع الرئيس محمد أنور السادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخــوة

التحية لكم وبعد . .

لقد أردت بهذا الاجتماع المشترك للمكتب السياسى ومجلس الوزراء ، أن أطلعكم على نتائج زيارتى الاخيرة لجمهورية مصر العربية . تلك الزيارة التى أعلنت للراحة والاستجمام . الا أنها وبنتائجها كانت زيارة عمل أثمرت وأعطت بحمد الله .

ولقد كان مقدراً أن يقضى الرئيس السادات الاسبوع الاخير من شهر رمضان معتكفا فى وادى الراحة بسيناء ، الا أنه وبدلا من ذلك تفرغ تماما لمباحثات تواصلت على طول سبعة أيام ، الا أن المباحثات رغم امتدادها لم تتخذ الطابع التقليدى لمباحثات رؤساء الدول ، وانما كانت شاملة لابعاد العلاقات السودانية المصرية بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، بالاضافة الى المتغيرات العربية والافريقية والدولية .

ولم يكن غريبا أيها الاخوة الا تتطابق وجهات النظر فى كل الموضوعات المطروحة ، فهناك اختلاف فى زوايا الرؤية ، وهناك اجتهادات مشروعة بنتائجها ، وهناك مسارات تجاوزت بالزمن على الاقل احتمالات النكوص عنها ، وهناك شرعية التعامل مع مختلف الوسائل للوصول الى نفس الهدف ، ومع ذلك وبرغمة فلقد تكاملت وجهات النظر والمواقف ، بما أكد مرة اخرى تفويض مصر للسودان بأن تتحرك بأسمها وعلى كل الساحات فى اطار أهداف لا خلاف عليها ، ومن أجل تحقيق غاية أجمع الكل عليها .

ولقد كانت القضية العربية ببعدها التاريخى احدى كبريات مشاغلنا ، الا أن ما يدور فى الساحة العربية حاليا كان موضع دراسة وتركيز خلال المباحثات وخاصة الوضع المتفجر فى لبنان والغارات الاسرائيلية على مواقع الفلسطينيين والاقتحام الاسرائيلى للجنوب اللبنانى ، بالاضافة الى ما تشهده الساحة اللبنانية من صراع امتد بالخراب ما يزيد على الست سنوات ، وفى هذا المجال فلقد أصدرنا وبصورة عاجلة اعلانا سودانيا مصريا مشتركا يطالب كل الاطراف الالتزام بقرار مجلس الامن بوقف اطلاق النار بالاضافة الى المطالبة برفع كل الايادى والامتناع عن التدخل فى شئونه ، واتاحة الفرصة للبنانيين لحل مشاكلهم دون تدخل أو وصاية أو قهر .

وكما كان ما يدور فى الساحة اللبنانية اهتمام ودراسة وبحث خلال المباحثات التمزق العربى احدى

موضوعاتها الرئيسية هذا الاطار فلقد تطابقت وجهات النظر حقيقة لا يمكن انكارها أو تجاهلها ، وهو غياب مصر عن الساحة العربية ، كان للتشتت العربى والتمزق العربى ، ذلك الذى وصل الى حد احتمالات المواجهة بين أقطار عربية متجاورة فى المشرق ، ووصل الى حد القطيعة بل والاشتباك المسلح بين أقطار عربية فى المغرب العربى ، بالاضافة الى حالة من الاستقضاب على النطاق الدولى والاقليمى ، الامر الذى أدى الى مواجهات عربية فى اطار انحيازها لاطراف دولية متصارعة واطراف أقليمية متحاربة . ولذلك فلقد ارتفعت فى العالم العربى أصوات تتحدث عن اقامة قواعد أجنبية وانشاء قوات للتدخل السريع فى المنطقة ، فى الوقت الذى يقوم فيه الاسطول السوفيتى بعمليات انزال على الشواطىء السورية ، وهكذا تشتبك العراق مع ايران فى حرب معلنة ، بينما تساند سوريا وبعض أطراف عربية أخرى ايران فى حربها ضد العراق ، رغم أن ايران كما أعلن مؤخرا تستجلب السلاح من اسرائيل ، وهو نفس السلاح الذى وجه للمفاعل العراق منذ أسابيع .

وفى اطار هذه الصورة المزعجة خلال المباحثات ، كان من الطبيعى تقرير أن تفرض قضية التضامن العربى . نفسها كوسيلة أو بديل لجمع الصف العربى وتوحيد ساحاته وصيانة موارده من أن تبدد فى ساحات غير عربية ، أو صراعات عربية أو دولية ، وذلك فى الوقت الذى يهدد فيه العالم العربى الخطر من داخله فى عدوان اسرائيل المتكرر ، ومن خارجه فى المطامع الدولية فيه والصراعات حوله ، ولقد أكد الرئيس السادات خلال المباحثات عن عميق قناعته بقدرة السودان بالقيام بدوره التقليدى لتحقيق التضامن العربى ، وأكدت أنا باسم السودان بأن التضامن العربى لا يكتمل بغير مصر شريكة النضال العربى وأن جهودنا الموظفة من أجل استعادة التضامن العربى انما هى موظفة وبنفس القدر لاستعادة مصر للعالم العربى .

وكما كانت القضية العربية احدى شواغل المباحثات ، كانت قضايا القارة الافريقية من أبرز الموضوعات التى طرحت خلالها وفى هذا المجال تطابقت وجهات النظر حول النقاط التالية :

أولا : ان الهجمة السوفيتية على القارة الافريقية لم تحرز سوى انتصارات محدودة تمثلت فى بعض البؤر المعزولة داخل القارة ، ولذلك فلقد اتجهت الاستراتيجية السوفيتية لتحقيق أهدافها عبر وسيط هو معمر القذافى ، والذى يتولى نيابة عن السوفيت دور الواجهة .

ثانيا : ان الهجمة السوفيتية ذات الواجهة الليبية قد خططت بحيث تستوعب وسائل مختلفة منها الاحتلال المباشر كما هو الحال فى تشاد ، محاولات تخريب الجبهات الداخلية داخل الدول الافريقية كمقدمة للزحف والاحتلال ، إثارة التفرقة العنصرية والدينية واستغلالها كمداخل للتدخل فى شئون الدول الافريقية ، القيام بأعمال تخريبية داخل الاقطار الافريقية تمهد لدخول العناصر المرتزقة التى تتولى ليبيا تمويلهم وتدريبهم داخل أراضيها ، اثارة الفتن الطائفية وبما يهدد الوحدة الوطنية لمختلف الاقطار الافريقية وبالشكل الذى يسمح لليبيا بالتدخل تحت ستار مساندة أحد الاطراف .

ثالثا : أن الهجمة السوفيتية ذات الواجهة الليبية على أفريقيا ، انما تضع فى مقدمة أهداف تحركها هدفين رئيسيين هما السودان ومصر . وذلك لاعتبارات تتعلق بالامتداد الجغرافى والوزن السياسى والحضارى للبلدين فى العالم العربى وأفريقيا ، وأن كلا البلدين السودان ومصر فى اطار هذه الاستراتيجية ،

انما يمثلان هدفين متبادلين بمعنى ان سقوط احداعما تحت السيطرة السوفيتية ذات الواجهة الليبية يؤدى تلقائيا الى سقوط البلد الاخر. وفى هذا الاطار يمكن فهم محاولات التخريب الليبية فى مصر والسودان بالاضافة الى مغزى اقتراب ليبيا من الحدود السودانية الغربية عبر تشاد .

رابعا : انه فى اطار هذا الفهم لواقع ودوافع التحرك السوفيتى بواجهتة الليبية ، فأن الحقيقة التاريخية التى تؤكد أن قضية الامن لا تتجزأ فى مصر والسودان ، قد أضاف اليها بعدا جغرافيا يتطلب المزيد من التنسيق والتعاون العسكرى والامنى بين البلدين ، وبما يسقط أية حواجز من الممكن أن تعرقل مشروعية الدفاع عن النفس بالنسبة لمصر فى السودان وبالنسبة للسودان فى مصر .

خامساً : ان الهجمة السوفييتية ذات الواجهة الليبية على أفريقيا ، قد اتخذت الى جانب التحرك العسكرى الذى يستهدف الاحتلال والتخريب طابعاً سياسياً تمثل فى محاولة إحتواء منظمة الوحدة الافريقية وتوظيفها لمصلحة المطامع السوفييتية بواجهتها الليبية ، ذلك التحرك الذى بدأ قبل وأثناء إنعقاد قمة نيروبى الأفريقية ، والذى إنتهى بقرار لم يحظ بأجتماع أفريقى ، وهو القرار الخاص بعقد القمة القادمة فى طرابلس .

ولذلك فقد كان من الطبيعى أن نعلن باسم السودان ومصر رفضنا لعقد مثل هذا المؤتمر فى العاصمة الليبية وذلك لاعتبارات تتعلق بحماية منظمة الوحدة الأفريقية من محاولات التخريب الليبى ضد المنظمة ، وحتى لا تضع أفريقيا لنفسها سابقة تتمكن فيها دولة أفريقية تحتل دولة إفريقية أخرى ان تشرف بتمثيل أفريقيا لعام كامل .

سادساً : لقد تناولت المباحثات تفصيلا ، الدور التوفيقى الذى يلعبه السودان فى القارة والذى يستهدف حل المشاكل بين الدول الأفريقية بالحوار بديلا للصراع المسلح ، وخاصة فى مناطق التفجير الأفريقية وعلى الأخص فى منطقة القرن الأفريقى ، ولقد باركت مصر التحرك السودانى فى هذا المجال وأعلنت قبولها للمشاركة فيه .

سابعاً : لقد كانت مبادرات السودان فى المشاركة فى التجمعات الاقتصادية الأفريقية كالتجمع الاقتصادى الذى يضم السودان وأثيوبيا وكينيا ،والتجمع الاقتصادى الذى يضم السودان ويوغندا وزائير موضع تفهم من جانب مصر ، باعتباره إستجابة عملية لمقررات قمة لاجوس الاتحادية ، وباعتبار تلك التجمعات قواعد قابلة للاتساع ثم التجمع كتجسيد للوحدة الأفريقية الشاملة .

وفى هذا الاطار تطابقت وجهات النظر المصرية السودانية ، خاصة وأن كلا البلدين يسعيان حالياً لعقد قمة دول حوض النيل ، كما أن السودان قد بارك الخطوة المصرية بإقامة بنك متخصص للتنمية فى أفريقيا .

ثامناً : لقد تناولت المباحثات الوضع المتفجر فى جنوب القارة والذى يرجع الى إستمرار القهر العنصرى فى الجنوب الأفريقى ولذلك ، كانت الدعوة المصرية السودانية المشتركة لتحرير ناميبيا بقيادة منظمة سوابو ، ودعوة البلدين الولايات المتحدة للقيام بدور أكثر فاعلية لتحقيق هذا الهدف .

ولقد كان من الطبيعى أن تمتد المباحثات لتشمل الساحة الدولية وما يحيط بها من متغيرات ،

فبالاضافة الى ديناميكية الصراع الدولى والعلاقات بين القوى العظمى ، الأوضاع فى بولندا وفرنسا ، والصورة الجديدة التى أصبحت عليها مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة وأثرها على الدور الأوروبى السياسى والاقتصادى بالنسبة للدول النامية عامة وفى المحور الأوسط وأفريقيا بصفة خاصة ، فقد أسفرت هذه الدراسة عن ضرورة تمسك دول العالم الثالث بالمبادىء الحقيقية لحركة عدم الانحياز وهى المبادىء التى تعصمها من الوقوع ضحية لمحاولات الاستقطاب الدولى ، وتوفر جهودها لمتطلبات التنمية .

وفى هذا الاطار أيضاً ، فلقد تناولت المباحثات الوضع المتفجر فى أفغانستان وأثره على أوضاع إيران غير المستقرة واحتمالات إمتداد تأثيره لمنطقة الخليج والمنطقة العربية عموماً ، ولذلك فلقد كررنا مرة أخرى شجبنا للاحتلال السوفييتى لأفغانستان المسلمة ، وطالبنا بانسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان كبداية مطلوبة لعودة الاستقرار لكل من حولها بل وعلى الأخص منها .

وبالنسبة لقضية التكامل بين مصر والسودان ، وخلال المباحثات كنت قد طرحت تصوراً لكل المقررات التى نفذت والتى لم تنفذ فى هذا المجال ، بل لقد تجاوزت كل الأهداف العاطفية التى تكون العلاقة بين شعب وادى النيل فى البلدين ، وذلك من منطق يسير على إستمرار التواصل العاطفى بين الشعبين الشقيقين مصر والسودان . ذلك التواصل الذى يشكل القواعد لحاضر ومستقبل هذه العلاقات وفى كل المجالات .

ولقد كان ملخص ما طرحته ، ان أجيالا هنا وهناك ، لم تعد تنفرد وحدها بالحياة على إمتداد وادى النيل ، هنا أجيال تلتها أو هى أجيال لم تعش أمجاد الكفاح المشترك ولم ترتفع حناجرها مؤيدة أو حتى معارضة لوحدة وادى النيل ، هى أجيال إغتربت ومنذ نال البلدان إستقلالهما عن هموم البلد الآخر ، وهى أجيال تشتت انتباهها بين مختلف الشعارات ، ولأنها هى الأجيال الوريثة للمستقبل ، وان واجب من تبقى من جيل الكفاح المشترك فى مصر والسودان أن يؤكد لها إنتماء البلدين كل للآخر ، وأن يكون معبر قناعتها بوحدة الهدف والمصير لشعب وادى النيل .

ولذلك فان المطلوب من التكامل المصرى والسودانى ، أن لا يقتصر عطاءه رخاء موقوتاً ومهما كان حجمه ، وإنما المطلوب له أن يكون مدخل قناعة الأجيال الجديدة هنا وهناك بأن ماضيهم الواحد وحاضرهم الواحد إنما يشكل مستقبلهم الواحد أيضاً .

ان المطلوب من التكامل المصرى السودانى أن يكون قناعة ملموسة لكل مصرى وسودانى بأن عمق بلاده لا ينتهى جنوباً عند أسوان ، أو شمالا عند الاسكندرية ، أو غرباً عند السلوم ، أو شرقاً فى سيناء ، إنما لأن حدوده هى أمنه فانها تمتد الى الجنوب حتى نمولس ، وفى الشرق حتى كسلا ، وفى الغرب حتى لجنينة ، وكذلك الحال بالنسبة لكل سودانى حيث تتشكل حدود وطنه وهى ضمانات أمنه بما يتجاوز ما هو مرسوم على الخرائط لتصل شمالا الى موقع السودان الجديد على الساحل الشمالى الغربى لجمهورية مصر العربية ، ولتصل شرقاً الى سيناء ، وغرباً الى جدود مصر وليبيا .

ذلك هو المفهوم المطلوب تأكيده بالتكامل العسكرى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى بين البلدين ، وهو مفهوم لن يتحقق بترديد شعار التكامل أو حتى شعار الوحدة ، بل هو مفهوم لن يتأكد حتى لو تحققت الوحدة ، ما لم تصل ثمار التكامل الى كل يد والى كل فم فى مصر والسودان ، ما لم

يشعر المصرى فى بنها والسودانى فى كادوقلى ، بأن ما لا يتوفر له من أرضه إنما يتوفر له من أرض شقيقته ، وأن ما يفيض عن حاجته إنما الأولى به هو أقرب الأشقاء اليه ، بالاضافة الى ما يجب أن يستقر فى وجدان الشعبين ، بأن ساحة الحركة بينهما لا تعترضها الحدود ، وأن ساحة العمل والاستثمار وحقوق التملك مباحة ومصونة لهما معاً فى مصر والسودان على السواء .

وتحقيقاً لهذا الهدف فان المطلوب للتكامل هو التحرر من بيروقراطية لجان التكامل ، التحرر من قرارات لها لا تنفذ ، وخطوات فى أعلى المستويات ليتم إجهاضها فى أدنى المستويات قرارات تستمد وجهها من عناوين الصحف وترديد أجهزة الأعلام لتسقط بعد ذلك فى ظلام الاهمال والتجاهل .

ان المطلوب للتكامل المصرى السودانى أن يكون لانجازات الدولة فى البلدين دور فى تحقيقه . الا أن الدور الأهم ينبغي أن يكون لحركة الشعبين تداخلًا وتكاملًا ، بل ان المطلوب من إنجازات الدولة فى البلدين فى هذا المجال أن تكون مجرد معابر للتواصل بين الشعبين عليها واجب إقامة الطرق الممتدة من القاهـــــرة إلى نمولى ، عليها واجب ربـــــط السكـــــة الحديد فى مصر والسودان ، عليها واجب تطوير الملاحة النهرية والبحرية ، ثم عليها وهو الأهم إعادة التواصل البشرى بين السودان ومصر فى منطقة النوبة وتواصل القبائل المشتركة فى منطقة البحر الأحمر ، ثم عليها مع ذلك أن تحقق إستراتيجية إقتصادية مشتركة تستثمر تنوع الموارد فى البلدين بما يحقق إحتياجات البلدين .

ثم يأتى قبل ذلك ومعه وبعده ، حركة المنظمات السياسية والثقافية هنا وهناك ، حركة المستثمرين فى مصر والسودان ، حركة الفئات المتشابهة لتبادل الخبرة والخدمات ، ثم يأتى ما يتوج ذلك كله ، وأعنى به قناعة مشتركة يؤكدها عمل مشترك بأن قضية الامن فى البلدين لا تتجزأ .

ولقد كان ما طرحته فى هذا المجال ، ليس مقبولا فحسب من جانب الرئيس السادات ، بل كان مؤكداً بانجازات لمصر فى الماضى ومبادرات لمصر فى الحاضر ، فليس سراً أن السودانيين الذين يقيمون فى مصر إقامة دائمة تتعدى أعدادهم مئات الآلاف الى ما يقارب المليونين ، ولعل عدم الوصول الى يقين بالنسبة لأعدادهم ، انهم محسوبون فى مصر كمصريين ، لا يجرى تصنيفهم وبالتالى تعدادهم كوافدين أو أجانب .

وليس خبراً أن أقول ان السياحة السودانية فى مصر بقصد الترفيه أو العلاج لا تعرف المواسم فهى ممتدة بامتداد العام ، الا أنها تصل الى ذروة الذروة فى موسم الصيف لتصل الى ما يزيد على النصف مليون مواطن ومواطنة ، وجميعهم يدخلون مصر بغير إجراءات ويقيمون فيها بغير قيود ، ويعودون منها بتكريم يماثل الترحيب بهم عند القدوم .

ولا أظنه جديداً لو قلت أن الطلاب السودانيين فى الجامعات والمعاهد العليا المصرية قاربوا الخمسة عشر ألف طالب وطالبة ، فإذا أضفنا الى ذلك عدد طلاب جامعة مصرية أخرى وهى جامعة القاهرة فرع الخرطوم لقارب العدد ثلاثين ألف طالب ، أي أن لنا فى مصر وبمصر ما يعادل أربعة جامعات .

ذلك شكل علاقة تأصلت حتى قبل إعلان منهاج التكامل والمطلوب بالتكامل أن يتجاوزها .

ولقد شهدت الزيارة أنجازاً تاريخياً يؤكد عمق العلاقات المصرية السودانية وبما يتناسب معها أنجاز من المستحيل أن يتحقق إلا فى إطار علاقة كتلك التى تربط شعب وادى النيل ، وأعنى به إنشاء ميناء للسودان فى أرض مصر ، ولقد إخترنا له إسم السودان الجديد ، والذى يمثل كما قلت امتداداً لعمق السودان فى مصر بالقدر الذى يؤكد إمتداد مصر فى عمق السودان ، وبالرغم من الأهمية الاستراتيجية لهذا الانجاز ، فانه كاستراتيجية سياسية قد أسقط مفهوم السيادة على الأرض فى كل من مصر والسودان وبالنسبة لمصر والسودان ، ومن هنا تكمن الدلالة العظمى لهذا الانجاز ، والذى استجاب له الشعب المصرى بالابتهاج وعبر عنه السودانيون المقيمون فى مصر بمسيرات تقدير وشكر للرئيس السادات .

ان الزيارة التى إمتدت لسبعة أيام كانت مهرجانا أقامه شعب مصر لتكريم السودان فى شخصى .

ذلك أننى أؤمن أن مظاهر الترحيب ومشاعر الحب من جانب الشعب المصرى الشقيق إنما هى لتوأمة شعب السودان بغير شريك .

الاخوة أعضاء المكتب السياسى والوزراء .

لقد أردت بهذا الاجتماع أن أطلع القيادات السياسية والتنفيذية العليا فى البلاد على نتائج الزيارة وأبعادها وآثارها فى تطوير العلاقات بين الشعبين الشقيقين فى مصر والسودان ، وأن المطلوب منكم ومنذ الآن أن توظفوا كل جهودكم وصلاحياتكم فى خدمة قضية التكامل وفى كل المستويات الشعبية والسياسية والتنفيذية حتى نصل بالعلاقات بين شعبى وادى النيل إلى أهدافها المنشودة تحقيقاً لرخاء وأمن الشعب الواحد فى مصر والسودان ولكي تكون تجربة التكامل مثالا ونموذجاً للأمة العربية والقارة الأفريقية المتطلعة للتقدم فى ظل الوحدة والازدهار فى ظل التعاون والتكافل والتكامل

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهرس

١٩٨١ / ٥٢٤٤

الترقيم الدولى ٦-٤٧-٧٣٢٣-٩٧٧ ISBN

